ثنائية البدو والحضر

في تتبّعنا لتاريخ العلاقة بين البدو والحضر ومحاولة تفسير الصراع بينهما نجد أنفسنا، بحكم ثقافتنا المدرسية وتنشئتنا الكتابية، نتبنى دونما نشعر موقفا ذهنيا ومعرفيا لا يختلف في بنيته وتكوينه عن موقفنا تجاه الأدب الشفهي واللهجات ونتقمص دوما ودونما وعي منا وجهة النظر المدنية/الحضرية المنحازة ضد البداوة وثقافة الصحراء والمجتمع القبلي ومجمل نتاجه الثقافي والفني. لقد آن لنا أن نتخطى هويتنا الحضرية في كتابتنا للتاريخ ودراستنا للمجتمع وأن نتجاوز تحيزات الكتابة وأن نفهم حقيقة البداوة لا كضد للحضارة ورمز للفوضى والدمار وإنما كثقافة متكيفة لاستغلال مناطق إيكولوجية وموارد طبيعية غير متاحة للحضر ولا تتواءم مع طبيعة الحياة المدنية، بعدها علينا أن نعيد تقييم علاقة البدو مع الحضر ونفهم طبيعتها من وجهة النظر البدوية والحضرية على حد سواء. تغلُّب الثقافة الكتابية على الثقافة الشفهية يعني في نهاية المطاف انحسار البداوة وتراثها الشفهي أمام الزحف المدني المدجج بالتكنولوجيا والأيديولوجيا وأدوات الكتابة. تكاد البداوة تختفي من الوجود وهي الآن تحتضر وتموت ببطء كما موت البعير، ومع ذلك فإننا لم نبدأ بعدُ محاولة استكشاف حقيقة العلاقة الإيكولوجية بينها وبين الحضر، والتي تقوم على التكامل والتعاون مثلما يشوبها التوتر والصراع.

النموذج المحلي

عرب الجزيرة الذين يدمجهم عرب الشمال وكذلك النموذج الخلدوني تحت مسمى البدو يتمايزون فيما بينهم على المستوى المحلي ويقسمون أنفسهم حسب اصطلاحهم والعرف الدارج بينهم إلى بدو، وهم رعاة الإبل الذين يعيشون حياة الحل والترحال، وحضر، وهم الفلاحون المستقرون في قراهم الزراعية ممن يسكنون بيوت الطين ومن يستعملون الفلح من الغراسة والزراعة. الطرف البدوي في النموذج الخلدوني ينقسم في النموذج المحلي إلى بدو وحضر. لذلك تخف حدة التضادية الثقافية بين البدو والحضر في هذا النموذج وتتقلص المسافة الفاصلة بينهما وتصبح أقرب من المسافة الفاصلة بين البدو والحضر في النموذج الخلدوني. وهكذا تختلف نوعا ما دلالة كل من البدو والحضر في النموذج المحلي عنها في النموذج الخلدوني؛ كما يختلف النموذج المحلي عن النموذج الخلدوني في قِصر المسافة الثقافية بين البدو والحضر وفي أنه لا ينظر لهذه الثنائية من منظور تطوري تعاقبي "دایاكروني" وإنما من منظور بنائي تقابلي "سنكروني". ثنائية البداوة والحضارة في النموذج المحلي لا ترتكز على التفاضلية أو التراتبية أو التضادية أو الصراع في علاقة البدو والحضر بقدر ما ترتكز على العلاقة الوظيفية التناظرية "السيمترية" التي تربط بينهما

والتي تقوم على تبادل الخدمات والمصالح والسلع. من هذا المنظور البنائي الوظيفي يمكن اعتبار البداوة والحضارة لا على أنهما مرحلتان ثقافيتان متعاقبتان على سلم التطور الحضاري أحدهما تسبق الأخرى، بل على أنهما وسيلتان مختلفتان لكن متكاملتان ومترابطتان للتكيف مع البيئة الصحراوية ومناخها الجاف. إنهما وجهان لعملة ثقافية واحدة أو طرفان متقابلان ومتوازيان في معادلة اقتصادية واجتماعية وسياسية واحدة، كل منهما يرتكز على قاعدة إنتاجية وتكنولوجية تختلف عن الأخرى تبعا لما تمليه معطيات الإيكولوجيا التي تحدد مصادر العيش وطرق كسبه. ما بين الثقافة البدوية والثقافة الحضرية في النموذج المحلي من اختلاف وما يشوب علاقتهما من توتر منشؤه اختلاف المناطق الإيكولوجية التي يستغلها كل منهما ليستخلص منها موارد رزقه ومن ثم اختلاف الأدوات والأساليب اللازمة لاستخراج هذه الموارد. منذ وجد الفلاحون والرعاة والصراع بينهما قائم على موارد البيئة الصحراوية الشحيحة. صراع البداوة والحضارة صراع قديم يعود، كما تحدثنا الأسطورة، إلى أيام قابيل وهابيل. إنه نتيجة طبيعية لهذه الثنائية ومكون أساسي من مكوناتها. لكنه في النموذج المحلي ليس صراعا بين جماعات همجية بربرية بدائية وبين أمم راقية متحضرة. إنه في حقيقته صراع إيكولوجي بين مجموعتين تكادان تكونان متعادلتين ومتساويتين تقنيا وحضاريا.

يتضح لنا التمايز الذي يحمله أهل الجزيرة العربية في أذهانهم بين البدو والحضر من خلال الاطلاع على أدبهم وشعرهم، الجاهلي والنبطي. البداوة والحضارة، كما يصورهما هذا الأدب، هما النمطان النموذجيان للحياة اللذان يحتلان بؤرة الشعور لدى الإنسان في الجزيرة العربية، وهما القطبان الأساسيان اللذان يحدان رؤيته وتتذبذب بينهما مشاعره وأفكاره. وكثيراً ما يرد ذكر الحضر والبدو مقترنين ببعضهما في الشعر النبطي. وقد استطاع بعض الشعراء أن يختزل هذا الموضوع ويحوله إلى إشارة عابرة أو جزئية فنية صغيرة نستشف منها حضورا ذهنيا دائما لهذه الثنائية في الضمير الجمعي كما يعكسه المخيال الشعري. يقول عبدالله ابن رشيد من قصيدة له مشيرا إلى أن البدو والحضر لكل منهما أسلوب حياة يختلف عن الآخر:

الحيضري ما يستوي غير ببلاد والبيدوي ما يستوي له تحضريه

وهذه أبيات من قصيدة يتضرع فيها أحد الشعراء إلى الله ويرجوه أن يجمعه بعشيره، مشبها رجاءه برجاء فلاح ركّب محالته ومد رشاءه وبدأ يزرع أو برجاء بدوي يهيم في البراري بحثا عن الماء والمرعى، حتى لو استغرق الرجاء والانتظار أربع سنوات "اربع حوليّه":

ياالله ياسماع صوت الداعي جزل العطايا مغني الفقريه
ان ترحم اللي عن هواه يصاعِ والحين عن حِبّانَها منحِيّه

أرجـــيـــه رجـــوا واحـــدٍ زَرّاع صَـدّر مـحـاحـيله وْمَـدّ رْشِـيّـه
وارجـيـه رجـوا البـدو للمـرباع وارجـيـه لو عِـقْب اربعٍ حُـولِيّـه

وقال شاعر آخر:

حـمـام يلعي بالبـسـاتين يلعب طرب والهم مـا جـاه
هو مـعـجـبـه حـضـرٍ مـقـيـمين هل القـصـور اللي مْـبَنّاه
أو مـعـجـبـه بدوٍ مْـقَـفّين يـتـلون بَـرّاقٍ نِـثَـر مـاه

وقد يرسم الشاعر مشهدين متتاليين أحدهما مستقطع من حياة الحاضرة والآخر من حياة البادية، كما في قول عبيد ابن هويدي الدوسري يصف قطيعا صغيرا "شمشول" نهبه غزاة من الدعاجين من قبيلة عتيبة قبيل الصبح ثم يتحول ليصف السانية وما تلاقيه من قسوة سائق لا يخاف ربه ولا يتقيد بتعاليم دينه ناسٍ مناطيق دينه التي تحث على الرأفة والرِفَق ويجشّمها ما لا تطيقه من المشقّة:

ياتل قلبي تل شـمـشـول الاسـراق مَعَ دعـاجينٍ سَـروا حـايفـينه
غَـدوا لهم مع سـومـة الصـبح بِنْيـاق وْتَـنَـحّـروا ضِـلعٍ زمى زابنـينه
أو تل حـبل السـانيـه عِـقْب الاعـلاق سـوّاقـهـا ناسٍ مناطيق دينه
لى جت مع السندا فـلا هيب تنسـاق لا شك يبـغى يهـينهـا الله يهـينه

ومثله قول الشاعر:

وجـدي عليـهـا وجـد راعي مـواليف حـيـرانهـا تشـدي ثلاثين مـقـهـور
جـاهن عـقـيـدٍ ردّف الجـيش ترديف ونوّخ لهن من بين جـال وعـثـمـور
أو وجـد من لُه غـرسـة تنثـر الليف ستٍّ عـقـايبـهـا على فـجّـة النور
حلّوا بهـا مع طلعـة الشـمس تنسـيف واصـبح نماها كنه الجـوخ مـشـرور

ومما يؤكد على حضور ثنائية البداوة والحضارة كحقيقة ذهنية في ثقافة أهل الجزيرة هو ما يحمله بدوها وحضرها كل منهما تجاه الآخر من مشاعر غامضة تتراوح بين الإعجاب والازدراء ومن صور نمطية متضادة تجمع بين الخساسة والنبل. النزعة الحربية التي تلون شخصية البدوي وتصبغ قيمه ورؤيته في الحياة بصبغة أرستقراطية تجعله يستنكف الفلاحة ويزدري الأعمال اليدوية والحرف والصناعات التي لا تليق بالنبلاء والفرسان "هل السنان والعنان". ويأنف البدو من سكنى القرى ويشمئزون من الروائح الكريهة المنبعثة من مجاري البيوت وأسمدة الحقول. يحتقر البدو حياة الحضر ويعيرونهم بأنهم يأكلون لحم الدجاج، بدلا من صيد البر، ويشربون حليب البقر "أم العوف"، بدلا من حليب النوق "الخلفات". والعجيب أن ازدراء البدو لحياة الفلاحين لا تتوقف على العرب، بل نجدها أيضا عند الصوماليين، بما في ذلك ازدراءهم لشرب حليب البقر بدل النوق (Lewis 1961: 101). والقصص والأشعار التي تروى عن ازدراء البدو للحضر وأنفتهم من سكنى القرى كثيرة منها قصة ميسون بنت بحدل مع معاوية بن أبي سفيان، وهي قصة مشهورة. ومثله قول بخوت المرية لما تركت البداوة واستقرت قرب إحدى مدن المنطقة الشرقية:

وجودي على بيت الشعر عقب بيت الطين وجـودي على شـوف المغـاتيـر منثـرّه

وقول أحد بنات العجمان لما زوجها أهلها من رجل حضري:

مـــــا لـي بـدارين ولا بـالـقـطـيـف ولا بـذا الحـلـه ولا مـن دَهَـلـهـــــا
شـقّي على وضـحـاً حُـبـاله تـهـيـف أسـبق من اللي عَلّقـوا في دِقَلـهـا
وْلَقْط الزبيـــدي من تـراب نـظـيـف في قـفـرةٍ يعـجـبك ريحـة نـفلهـا[1]

وهذا حسن ابن سرحان، شيخ مشايخ قبيلة بني هلال، يفتخر بأنه ليس حضريا وإنما بدوي يتتبع مواطن الكلأ لإبله ويدفع عنها الأعداء وذلك في قوله:

أنا حـسـن مـا نـي ولد حـيـضـريّه ولا زهْمَلَتْني عند بيـــبـــان دوره[2]
دِرْني وتـلـقـــانـي ورا شـــمّخ الذرى أضـــرب بعـــيـــدان القنا من يِدوره

ومن الأمثلة على ازدراء البدو للحضر حكاية بداح العنقري الذي كان يركب فرسه ويذهب إلى منازل بدو كانوا قاطنين بالقرب من ثرمداء ليستعرض فروسيته أمام أحد الفتيات التي أعجبه جمالها. لكن الفتاة لم تأبه به وقالت لأحد النسوة التي كانت تحاول أن تلفت نظرها إليه: خيّال القْرى زين تصفيح، أي أن خيال القرية يجيد الاستعراض لكنه لا يجيد الكر والفر. وفي صبيحة أحد الأيام أغارت خيل قبيلة الفضول على القطين واستاقوا إبلهم ولم يستطيعوا فكها حتى كر العنقري على فرسه واستنقذ الإبل. وفي هذه المناسبة قال قصيدته المشهورة ومنها:

الله لحَـد يامـا غـزينا وجـينا ويامـا رِكِـبنا حـاميـات المشـاويح
ويامـا تـعـاطت بـالهنادي يدينا ويامـا تِقـاسـمنا حـلال المصـاليح
وراك تـزهـد ياريش الـعين فـيـنـا تقـول خـيّـال القْـرى زين تصـفـيح
ترى الـظفـر مـا هوب للظاعنينا قَـسْمٍ وهو بين الوجـيـه المفـاليح
يوم الفـضـول بحلتك شـارعـينا ادعـيت عنك الخـيل صمٍّ مـدابيح
البـدو واللي بالقْـرى نازلـينا كِلٍّ عـطاه الله من هَـبّـة الريح

وينتهي الأمر بأن يتزوج بداح من عشيقته لكن حياة الحضر لم ترق لها فقالت قصيدة منها:

واشـيـب عـيـني من قـعـودي بقـريه ومن بيـقـرانٍ رِبْطها في حلوقـهـا
هنيّ بنـات البـدو يرعن بقـفـره ريح الخـزامى والنفل في غَـبـوقـهـا

وهذا شاعر مطير حنيف ابن سعيدان يعبر في الأبيات التالية عن حسرته لتحول الدويش من حياة البداوة إلى حياة التحضر بعد ما استقر في هجرة الارطاوية:

واشـيـخنا وان شـافت النار ناره لى من كلٍّ حَطّ عطفـه ومـسـيـوق
كم واحـدٍ ينوي وفـيـصل دمـاره على النقـا مـا فـيـه سـرقٍ ولا بوق
واليـوم فـيـصل سـاعْيٍ بالتـجـاره صكّوا عليه الحضـر يمشي مع السوق
مـيـر اقـمـحي ياسـابقـه كل غـاره وذودٍ يبي مع طيـحـة الوسم زملوق

---

(١) دهلها: سكنها. تهيف: تتحرك في هذا الاتجاه وذاك. اللي علّقوا في دقلها: السفينة. الزبيدي: الكمأة.
(٢) زهملتني: لفتني بالمهاد.

وقد عبر الجربا في الأبيات التالية (والبعض ينسبها لصايد الزعيلي) عن معارضته للدولة السعودية الأولى والدعوة السلفية التي تتبناها لأن متطلباتها تتعارض مع متطلبات البداوة ويقول بأن الدين لا يتواءم إلا مع حياة الفلاحين المسالمين الذي يغرسون النخيل ويزرعون الحبوب ولا يصلح لذئاب الصحراء المعتادين على السلب والنهب، ويقول إن الإذعان للدعوة يعني الاستسلام والرضوخ وبيع الخيل بأزهد الأثمان لأنه لم يعد لها حاجة:

ونّيت ونّة من شْلِع مِنْه لِه ضرس ... أو ونّة اللي غادي له بضاعه
من شوفتي للذيب يجلس على الدرس ... من عقب فرسه صار قلبه رعاعه
الدين يصلح للذي مهنته غرس ... راعي قليبٍ دبّر الحب صاعه
والا غلامٍ طمّن الكف للمرس ... يعطي لطلاب الجنايا رتاعه
ياهل مشاويل الرمك رايكم عمس ... مير اجلبوها وارخصوا بالمباعه
لى صار ما طارى المغازي لها رمس ... وقلايعٍ ناتي بها كل ساعه
يامـا حلى الزغروت ياناقع الورس ... ياللي نقاريش الهوى في ذراعه

ولقد بلغت حدة التوتر بين البدو والحضر ذروتها حينما تفاقمت حركة الإخوان قبل القضاء عليها في معركة السبلة. وفي القصائد والعرضات التي قالوها للإشادة بانتصار الملك عبدالعزيز في معركة السبلة استغل شعراء الحضر هزيمة الإخوان للتشفي من البدو والسخرية بهم. وقبل هؤلاء جميعا سبق وأن عبر حميدان الشويعر عن نظرة الحضري إلى البدوي في قوله:

البدوي ان عطيته تسلّط عليك ... قال ذا خايفٍ مير بالك عطاه
إن ولى ظالمٍ مفسدٍ للكمام ... وان ظْلِم زان طبعه وساق الزكاه
مثل كلبٍ الى رِمِي فهرٍ يروح ... وان رْمِي له بْعظمٍ تبع من رماه
حاكمٍ ياكلونه ومنهم يخاف ... من رخاميّته ماهنينٍ ثواه
وحاكمٍ هو دواهم بفعلٍ يشاف ... كلما خالفوا لحق فيهم مناه
كل يومٍ عليهم صباحٍ شرير ... غير ذبح اللحى عزل بوشٍ وشاه[1]

وشبيه به قول فواز السهلي في قصيدة له يمدح بها الأمير عبدالله بن ثنيان المتوفى عام ١٢٥٧هـ:

للحضر زيّن موازين العدال ... واسهم بالله ورتّب ناظرين
والبوادي لو عطوك من العهود ... فاجرينٍ ماكرينٍ بايرين
شيخهم يجلس وتاليهم يروح ... للطوارف والدروب مْحَنشلين
اصقل الهندي وسنّه للاعراب ... وانسف الجمهات والله لك عوين
لين ياتي دينهم دين الرسول ... اشهد ان ما دينهم هذا بدين
الاعراب اشد كفرا ونفاق ... فالله الله والاعراب مكذّبين
يسفكون الدم والماكل حرام ... وما فرض طاغوتهم به خالصين

(١) **الكمام**: يكنون به عن سلطة الحكم والدولة. **فهر**: حجر. **رخاميته**: جبنه وذله تشبيها له بطائر الرخم. **ماهنين ثواه**: متسلطون عليه ومذلينه. **اللحى**: الأنفس، الرجال. **عزل بوش وشاه**: يغرمهم ويأخذ إبلهم وشاءهم.

وهناك أبيات مشهورة لبديوي الوقداني في هذا المعنى منها قوله:

البـــــدو يـاباغٍ من البـــــدو ثـابـه ... البــدو لو شــافت مــعك شي تنهــبك
لى جــوا على العـيــشــه ســواة الذيابه ... عَـدّت مــخــالبــهم عن الزاد مــخلبك
احـــذر تِطَرّف ياخـــذونك نْهـــابه ... والا تخــاويهم يحــتّــون مــزهبك[1]
كِبْ البـــــدو ياجـــعلهم للذهابه ... حــيث ان مــذاهبــهم تخــالف لمذهبك

رغم ما تتسم به حياة البدو عموما من قسوة وشظف وضنك، مقارنة بحياة الحضر، فإن البدوي يجد العزاء فيما تمنحه له إبله من حرية واستقلالية وقدرة على الحركة مما لا يتوفر للفلاحين المستقرين. وهذا ما قصد إليه جنّاب، أحد عبيد عقاب ابن عجل في قصيدة قالها يلوم عمه لسماعه مشورة من زين له بيع الإبل والاستقرار وفلاحة الأرض، ويذكر الشاعر عمه بما حدث للشيخ ابن سعدون الذي استطاع بفضل إبله أن يتحاشى هجمات الدولة العثمانية التي رفض الخضوع لها:

ياعــقــاب عــقب البل خــرابيط وعْلوم ... يابو جــهــز لا تْعــيــر فكرك لغــيــره
إمّـــا انت والا عـــــافتٍ خلّوا الدوم ... واتبع هوى "العليا" و"لعبه" و "ظيره"
طيــرٍ بلا جنحـــان مــا يِدرِك الحــوم ... جناحك البل يوم عــمّــد نشــيــره
افطن ترى ام ذرعـــان تلحـــقكم اللوم ... اللي تشــيل البــيت يا صــار ذيره
البل يا منّه مـــلا كـــبـــدك الزوم ... تــدّيــك مــن لــك ديــرةٍ يم ديــره
مـا شـفت سـعـدون سنة هجـمـة الروم ... لولا نْيــاقــه مــا ســعت له بْخــيــره
أرسل عـلـى الدفـــرات من كنّسٍ الكوم ... وشــالوا على حــيلٍ سْـمــانٍ ظِهــيــره
وأقــفى كــمــا طيــرٍ كــفخ يدرج الحــوم ... من فــوق نوقٍ عين خــمسٍ مــسـيــره[2]

يكفي ما قدمناه حتى الآن من شواهد شعرية ليقوم دليلا على أن أهل الجزيرة العربية يحملون في أذهانهم تصورا نظريا لطبيعة مجتمعهم يصنّف هذا المجتمع إلى شقين: بدو وحضر، كل منهما له خصائص تميزه عن الآخر وطريقة مغايرة في الحياة. هذا التصور النظري هو ما سميناه النموذج المحلي لثنائية البدو والحضر. لكن هذا النموذج المحلي، كأي تصور نظري وكأي عملية نَمْذَجة، يقدم صورة مبسطة ومنمطة لواقع اجتماعي متداخل التركيب. ثنائية البداوة والحضارة في النموذج المحلي تمثلان نقطتين متقابلتين على خط متصل يحصر بين طرفيه سلسلة متدرجة من أنماط الحياة وسبل التكيف مع بيئة الصحراء والتي قد تتفاوت فيما بينها بتفاوت معطيات الجغرافيا والمناخ، لكنها مع ذلك تتشابك وتتداخل على عدة نقاط من هذا الخط المتدرج بحيث يصبح من الصعب التمييز والفصل فيما بينهما واعتبار كل منهما وحدة اجتماعية واقتصادية منعزلة عن الأخرى، بل إن أنماط الحياة هذه

---

(١) **يحتّون مزهبك**: يأكلون كل ما معك من الزاد ومؤونة الطريق.

(٢) **خرابيط وعلوم**: تُرّهات وكلام لا فائدة منه. "**العليا**" و "**لعبه**": أسماء إبل الشيخ الموجه له الخطاب. **عافت**: ابن عقاب ابن عجل. **ام ذرعان**: اسم أحد النوق. **ما سعت له بخيره**: لما استطاع النجاة. **كفخ**: صفّق بجناحيه. **عين خمس مسيره**: لا يدركه من يطلبه إلا بعد مسير خمس ليال.

تتقاطع وتتفاعل على مختلف المستويات التنظيمية والأنشطة الاقتصادية لتشكل مع بعضها البعض نظاما اقتصاديا واحدا ورؤية اجتماعية وثقافية واحدة. لذلك فإنه بقدر ما يسهل التمييز بين البدو والحضر على المستوى النظري يصعب الفصل بينهما في الواقع المعاش (Kurpershoek 2002: 93-96). وهذا بحكم ما يقوم بينهما من علاقات متشعبة ومكثفة وبحكم أن وجود أي منهما ضروري لوجود الآخر، على خلاف ما يفترضه النموذج الخلدوني من أن البدو فقط هم الذين لا غنى لهم عن الحضر في حاجاتهم الضرورية بينما لا يحتاج الحضر إلى البدو إلا في الحاجي والكمالي (خلدون ١٩٨٨/١: ١٩١-٢).

النموذج الخلدوني لثنائية البداوة والحضارة يسير في حركة تطورية آحادية الاتجاه، بمعنى أن التغير يسير دائما من البداوة إلى الحضارة وليس العكس لأن التمدن، كما يقول ابن خلدون، غاية البدوي بينما لا يتشوف الحضري إلى أحوال البادية (خلدون ١٩٨٨/١: ١٥٢). لكن الدراسات الميدانية والأركيولوجية تؤكد أن المراوحة بين البداوة والحضارة أمر غير مستغرب، وفق ما تمليه المصلحة والظروف (Abu-Rabia 1994: 21-2; Finkelstein 1992: 133; Lee and Bates 1974: 191; Marx 1992: 259). وهذا ما يؤكده أيضا النموذج المحلي. فقد نجد أن الأسرة أو الفخذ بكامله يتحول، لسبب أو لآخر، من البداوة إلى الحضارة أو العكس (al-Juhany 1983: 151-3). والتحول من البداوة إلى الحضارة عملية مستمرة لكنها تتم ببطء وعلى مراحل. حينما يصل البدوي إلى درجة من الفقر لا يملك معها راحلة لتحمله ولا شيئا من المواشي فإنه يضطر إلى الاستقرار فى أحد القرى أو المدن "يْهَتل" ليفلح الأرض أو ليبحث عن عمل يعتاش منه، كأن يعمل جمّالا أو راعيا لأهل البلدة أو سائقا لسوانيهم. وحينما تجبر الظروف البيئية والمناخية القبيلة على الارتحال والهجرة بعيدا عن ديارهم بحثا عن الماء والمرعى فإن هذه الهجرة عادة تتم على مراحل وقد تستغرق سنوات وتترك وراءها العديد من الأفراد والأسر الذين لا يستطيعون مواصلة الرحلة وتحمل مشاقها. من ناحية أخرى قد يصل البدوي إلى درجة من الغنى وتكدس الثروة بحيث يصبح من المستحيل عليه أن يدير كل ما يمتلكه من قطعان الماشية مما يضطره إلى بيع بعضها واستثمار القيمة في شراء الدور والمزارع والعقارات ثم يصل بعد ذلك إلى مرحلة يجد فيها نفسه ملزما بالاستقرار في المدينة لإدارة أملاكه والإشراف عليها ومزاولة الأعمال التجارية (Blunt1881/I: 260). وأحيانا تجبر الظروف القبيلة على الاستقرار بسبب توالي سنوات القحط مثلا أو التعرض لغزو كاسح مثلما حدث لجماعة صحن ابن علي شيخ الجعفر من عبده. حدثني مهنا ابن نويشي ابن ثنيان قال إن ساجر الرفدي أغار على الجعفر حينما كانوا نازلين في خضرا بالقرب من لينة ونهب أذوادهم بالكامل، فركب صحن ابن علي إلى قبائل الرمال والشلقان

والسهيل مستجديا إياهم ليعوض خسائر قومه. وصادف أن مهنا ابن ثنيان أحد عقداء الزميل كان قد عاد لتوه من غزوة شنها على النصير من المرعض من الشعلان بالشقيق ونهب منهم إبلا ما له حد ولا رد فأعطى صحن من هذا الكسب ثمانين ناقة. وكافأ صحن مهنا على جميله بأن وهبه الهْبِكه، وهي أحد موارد الجَعَفَر المعروفة في منطقة الحزول. أما صحن فإنه بعد هذه الحادثة قرر هو وقومه ترك البداوة والاستقرار في قراهم الزراعية.

وقد يتحول الحضر إلى البداوة نتيجة جفاف الآبار أو استنزاف التربة أو اضطراب الأحوال السياسية وانعدام السلطة القادرة على ردع البدو وكف أذاهم عن الحضر، وهذا ما حدث مثلا في العالم الإسلامي عامة مع انهيار سلطة الدولة العباسية في نهاية القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر الميلادي وتجزئتها إلى دويلات كان من أولها دولة الحمدانيين من تغلب التي قامت في الموصل ثم انتقلت في عهد سيف الدولة إلى حلب (Asad 1973: 66-8) . ومن الأمثلة على ذلك في العصور المتأخرة قبيلة الحويطات التي يستنتج البعض من اشتقاق الإسم أنهم كانوا في الأصل فلاحين (Wallin 1979: 130-4, 302). وتردد الروايات الشفهية أن الزميل من سنجاره وقبيلة الدغيرات البدوية من عبده كانوا أصلا فلاحين ورعاة ماعز وشياه لا يتعدون شعابهم وجبالهم، ولم يقتنوا الإبل ويتوغلوا في الصحراء إلا مؤخرا بعدما قويت قبيلة شمر. يقول نواف ابن طعيسان من شيوخ الرمال:

> سنجاره كلّه ما هي بدو أوّل، لابدين بهالضلع اللي بموقق واللي بتوارن واللي بشوط ياكلون من التمر وعندهم غْنيمه. ولكن يوم انتشرت الناس وعرفوا الديار وقاموا يصولون ويجولون ويغزون انتشروا وصاروا اهل بل واهل حلال. والا هم اول عشر معزا ونْخَلتين. والناس قليله قَبِل، الظاهر ان كل الغفيله صاروا بهالديره، موقق، اللي بفلاحه واللي بهالضلع، كل الغفيله.

ويقول زعل ابن عواد الضويلي من أهالي موقق:

> أول حياتي بدوي بهالحماد بين العراق والاردن. استقريت بموقق لي حول خمس وعشرين سنة، تحضريت بملك هلي، فلايح هلي وشلقهم وارضهم واملاكهم اللي هم نِشوا به وجدودهم وطلعوا به وكثروا به، هالديره. بس حنا رحنا بدو تخيرنا البداوه تخيّر، يوم البداوة قبل يغزون الرجال، اهلنا قبل، يغزون ويدورون المصالح. نمشي يم ديار هالشمال ونمشي بادية مع اللي يبدي من جماعتنا، مع الرمال ومع الغفيله. أهل موقق حضر، كل طوايفهم، الا يشذ منهم ابن فطيمان والصقيري وابن بشر، هذولا مثلنا كانوا حضر وعافوا الفلايح بالزمان الاول وراحوا بدو يتلون البل ويغزون ويكسبون. ويوم انه طفى ضو البداوه وانجعف شداده نكسوا على ملوكهم.

وتذكر الروايات الشفهية أنه حينما مرت فلول شمر المنهزمة أمام عنزة في موقعة بيضا نثيل على مفتاح الغيثي، زعيم الدغيرات، وجدوه يرغى، أي يصنع الإقط، ولما طلبوه أن يترك السوادين، أي الغنم وبيوت الشعر، وينهزم معهم بالسلّة، أي الخيل والإبل والرجال، أجابهم بأنه وكل جماعته أهل سوادين، مما يعني أنهم لم يكونوا يملكون إلا الغنم وبيوت الشعر دون الإبل والخيل. والدغيرات يدعون أولاد علي ويقال

أن عليا هذا كان في الأصل يحترف تأبير النخل لأهالي جو في منطقة أجا. وكانت له إبنة رائعة الجمال. وفي ذات يوم مر بها شباب من شبان القبيلة، الذين كانوا يحضرون إلى جو في الصيف لجني ثمار نخيلهم، فبهرهم جمالها لكنهم عابوها بأن أباها يعمل أبارا. ولما اشتكت الفتاة لأبيها وروت له ما حدث لها مع شباب القبيلة صمم الرجل على أن يثأر لكرامته ويثبت رجولته ونبل أصله. ودبر خطة تكفل له ذلك لكنه لم يشرع بها إلا بعد ارتحال القبيلة لأنه أراد أن يؤجل المواجهة معهم لحين يتم استعداداته. لما ارتحلت القبيلة عمد إلى مكان مشهور بجودة الملح وجلب منه حاجته وانكب على تجهيز ما يحتاجه من ملح البارود، وكانت البارود المستخدمة آنذاك هي النوع المسمى فتيل. وكان محتاجا لكمية كبيرة تكفيه مهما طالت المناوشات بينه وبين القبيلة حينما يحضرون في الموسم القادم. وفعلا لما توافدت القبيلة في الصيف لجني النخيل جلس لهم هو وأبناؤه في قمة الجبل الذي يحرس جو وصدهم عن دخول المكان وأعلن ملكيته المطلقة لجو ولا أحد يدخلها إلا بإذن منه ووفق شروطه هو. بذلك أصبحت جو ملكا للدغيرات الذين تحوّلوا للبداوة بعد أن قويت شوكتهم.

تلعب عوامل البيئة والظروف المحلية دورا هاما في تحديد تركيبة النظام القبلي وطبيعة العلاقات الاجتماعية والسياسية بين البدو والفلاحين. ففي المناطق التي تقع على جنبات الأودية بما توفره من مياه جوفية وتربة خصبة كما في وادي حنيفة في منطقة العارض أو وادي الرمة في منطقة القصيم نجد الأهالي يميلون نحو الزراعة والاستقرار. لذلك ظهرت في بعض مدن هذه المناطق محاولات متكررة لنشوء ما يشبه إلى حد ما دولة المدينة في الأزمنة السابقة، خصوصا لدى المدن التي تقع على طرق الحج والتجارة مما مكنها من تدعيم الفائض من محاصيلها الزراعية بما تحصل عليه من دخل لقاء نشاطاتها التجارية واللوجستية. أما في المناطق الصحراوية التي لا تسمح بيئتها الطبيعية بمزاولة الزراعة فإن البداوة الخالصة التي تقوم على رعاية الإبل هي النمط السائد، كما هو الحال بالنسبة لقبيلة آل مرة في منطقة الربع الخالي جنوبا أو قبيلة الرولة في منطقة الحماد شمالا. أما المناطق التي تتوفر فيها المياه والأراضي الخصبة والمراعي الجيدة فإننا نجد أفراد القبيلة الواحدة موزعين بين حياة الرعي والبداوة وبين حياة الزراعة والاستقرار. وهذا يكون عادة في المناطق الجبلية حيث تعمل قمم الجبال الصخرية وسفوحها على تجميع مياه الأمطار التي تجري على شكل تلاع وشعاب ووديان صغيرة تصب في فياض وروضات خصبة. ومن الأمثلة على ذلك جبلي أجا وسلمى في منطقة حائل وجبال الهضب في منطقة وادي الدواسر وجبال العوالي قرب المدينة حيث تقطن قبيلة حرب. إلا أن بُعد هذه المناطق عن طرق الحج والتجارة ومناطق النفوذ الخارجي حال دونها ودون قيام المدن الكبيرة والأمارات فيها وظلت تدور في فلك البداوة والنظام القبلي. وظلت هذه المناطق

خاضعة للهيمنة القبلية إما بحكم القرابة والانتماء القبلي أو بحكم التبعية. ومن المعلوم مثلا أن حائل لم تستطع النهوض لتكوّن لنفسها إمارة ذات شأن حتى تبدلت الأحوال السياسية وانفرط الأمن في وسط الجزيرة العربية مما أدى إلى انحراف طريق الحج الفارسي من وسط الجزيرة إلى شمالها حيث استفاد أمراء حائل الرشيديون من هذا الوضع الجديد وآلت إليهم مهمة نقل وحماية الحج الفارسي بما يوفره لهم ذلك من دخل إضافي.

وبالإضافة إلى الفلاحين والبدو رعاة الإبل هنالك أطراف أخرى تدخل لتضيف دليلا آخر على عدم دقة فرز أهل الجزيرة العربية إلى صنفين منفصلين ومتمايزين تمام التمايز: بدو وحضر. فهناك الشوايا، أو الشاويّه، وهم البدو المتخصصون في تربية الماعز والضأن. وهناك من يسمون عريبدار أو القْعَديّه (من القعود وعدم الحركة) وهم من البدو الذين تقطعت بهم الأسباب والسبل وليس لديهم من الرواحل ولا من الحلال ما يمكنهم من الاستمرار في حياة البداوة، فيضطرون إلى النزول على حافة المدن والقرى الزراعية علهم يجدون عند الفلاحين وأهل المدن من الأعمال ما يعينهم على كسب قوتهم اليومي.

والشوايا، على خلاف أهل الإبل، لا يستطيعون التوغل في الصحراء ولا يحتملون مشاق النجعة، لعدم استطاعة ماشيتهم على ذلك وحاجتها للماء بشكل يومي. هذا الصنف من البدو لا يربّون الخيول ولا يمارسون الغزو وليست لديهم النزعة الحربية التي لدى رعاة الإبل وغالبيتهم يدفعون أتاوة "خاوه" للقبائل القوية التي يعيشون تحت حمايتها، ولذا يعدون أدنى منزلة من رعاة الإبل الذين هم بعيدين الظعَنه وسيعين الطعَنه. لكن الشوايا مع ذلك يعدون من القبائل الأصيلة والنبيلة. وكثيرا ما يورد الشعراء مقطوعات شعرية يصفون فيها نبل رعاة الإبل وأفضليتهم وعدم استطاعة أهل الغنم مجاراتهم في بعد النجعة والارتحال. يقول ابن قويفل يمدح الشعلان بأنهم أهل إبل ينزلون بعيدا في الخلاء وليسوا أهل غنم:

نَزْل الخلا ما هم فراقين سِقْسان ... ما سَقْسِقوا للعنز تتلي ظَعَنهم

ويقول ابن سبيل:

مظهورهم كِن الطمامِيع تشعاه ... يتلي سلف خيّال من قرّبت به
ياقِرْب مسراحه وما ابعد معشّاه ... تِمْسي مْحَوّشة الغنم تشتمت به

ويقول نافع ابن فضليه من بني علي من حرب:

بِمْطِر على دارٍ يِربَّه خليفان ... بالقيظ رعيان الغنم ما يجونه
ما يدهله ياكود خيلٍ وقطعان ... فيها النصي كن الغدارين لونه

ويقول عدوان الهربيد من السويد من شمر موجها الكلام إلى جريس، ابن أخيه، قائلا له إننا أهل غنم نسوقها "نجل الحبص" ولا نستطيع مجاراة قبيلة الرمال في حلهم وترحالهم:

جـــينا نِجِلّ الحـــبص جَلّ الوداعِ ... قـــرايفٍ مـــا بين رامي ومـــصـــفـــار
مـــا يطردن الجـــوع لو هن شـــبـــاع ... قـــرايفٍ مـــا بين رامي ومـــصـــفـــار
نتلي مـــصلّح ناقـــتـــه والمْتـــاعي ... ربعٍ يدورون المغـــازي والاســـفـــار
هل الشـــداد مْـــدَلّهين القطاع ... كم راس حـــيـــدٍ زوّلوا عنه الاشـــجـــار
مـثل القـبـيس ليـا انتـهض بارتفـاع ... حـــلالهم ياجـــريس حـــثّـــات الاوبار
حـيـرانهم تشدى حـفـيـد الضـبـاع ... وضحٍ تَعـــاود بين ملحق وقـــهّـــار
مِطْـنين راع الضـــــان بـالانـقـطاع ... ومـرضين بعـصـيـر النزل كل صـقّـار
هل الشـــداد ملـعـــــفظين القطاع ... كم راس حـــيـــدٍ زوّلوا عنه الاشـــجـــار
ياجـــريس قِلْ عن دربهم بانهـــزاع ... مـــا ظَنّتي بارى هل القـــود حـــمّـــار[1]

ويقول ابن عيسان الشبيتي يمدح الإبل ويذم الغنم ويقول في البيت الأخير إن الإبل، رمز حرية البدوي واستقلاليته، هي التي تحملهم عبر المفازات والمظامي إلى جوف الصحراء حيث لا تستطيع يد أي حاكم أن تصل إليهم:

ياالله من حـــرش العـــراقـــيب ياالله ... وابوي مـــا اعـــجل وردها والصـــدير
هي النِّقَـــذ لى مـــا عطوا درب مظمـــاه ... والا من الحـــــاكم خَـــــبَطْهم نذيرِ
مـــا هيب من صـفـر العـيـون المهـبّـاه ... اللي عليـــهـــا يَزِرْبون الحـــضـــيـــر
دايم وراعـــيـــهـــا تكالح ثناياه ... يخـــاف من ســبعٍ عليـــهـــا يغـــيـــر

ومن ضمن نصائح الدسم لأخيه هذه الأبيات التي يحثه فيها على اقتناء الإبل ويحذره من اقتناء الغنم:

الزبد لا يرمـــــيك هو والرويبـــــه ... تتـــعب بحـــوش الضـــان وتدشّـــر النيب
النيب بايام الدهر لك حليـــبـــه ... يدفـعك لايام الفـضـا والتـعـاجـيب
راع الغنم يشـيب من قـبل شـيـبـه ... والبل مـــعـــزه تجلي الهم والشـــيب

إلا أن الغنم مع ذلك تتميز عن الإبل بعدة مزايا من أهمها أنها سريعة التوالد والتكاثر إذ لا تتعدى فترة حملها ستة أشهر مقارنة بالإبل التي تصل إلى سنة كاملة تقريبا، وهي سهلة التصريف عند البيع والشراء لرخص أثمانها مقارنة بالإبل (Asad 1970: 16-7; Sweet 1965: 1139)، خـصـوصـا وأن أهلهـا، على خـلاف أهل الإبل، لا يظعنون بعيدا عن المراكز الحضرية والأسواق. وتنتج الغنم كمية من الصوف أكثر من الإبل وحليبها يمكن استخراج السمن منه كما يمكن تجفيفه على شكل أقط. هذا عدا أنها يمكنها أن تتغذى على أنواع من الأشجار وتعيش في بيئات لا تستطيع الإبل أن تعيش فيها لأن صوفها يقيها البرد الذي لا تتحمله الإبل وهي لا يضرها ذباب الزريقي الذي يفتك بالإبل في منطقة الفرات. ورعي الغنم والعناية بها لا يتطلب

(١) **الحبص**: الشياه قليلة الصوف. **قرايف**: ضعاف وهزيلة لا حليب فيها. **رامي**: من جدعت حملها. **مصفار**: من ولدت في فصل الصفري ونش ضرعها. يقول إننا نسوق هذه الشياه حريصون عليها كما لو أنها ودائع في أيدينا. **المتاعي**: من يتاعي لفرسه، يناديها. **مرضين بعصير النزل كل صقار**: لهمتهم وسرعة مسيرهم يصلون منزلهم قبل غروب الشمس مما يتيح الفرصة للقناص أن يصطاد بطيره. **حمار**: راعي الغنم لأنه يعوّل على الحمير في نقل متاعه.

جهدا كبيرا لذا يمكن للأطفال الصغار والنساء أن يقوموا بهذه المهام. ونظرا لأن الغنم ليست سريعة الحركة مثل الإبل فإنه ليست هدفا مفضلا للغزاة، بل إن البعض يأنف من نهبها، مثل ما يشاع عن ساجر الرفدي في قصيدة له يمدح جواده:

وامـهـرتي وانا عليـهـا شـفـاوي ... لى قـيل ياهل الخـيل تطري عَلَيّـه
مـا ني مـعـوّدها لكسب الشـواوي ... ولا رددت فـرق الـغـنـم يـالـزويّـه

ومن عادة البدو المستضعفين أن يطلبوا من أبناء عمهم الأوفر حظا من أصحاب الإبل الذين يمتلكون بالإضافة إلى الإبل رعايا من الغنم أن يمنحوهم ما لديهم من أغنام ليربّوها لهم ويعتنوا بها مقابل نتاجها من الصوف واللبن، أما نتاجها من الخراف فهي تعود للمالك. ومعظم قصائد عدوان الهربيد من السويد وملاحاته مع ابن أخيه جريس تدور حول هذا المعنى. يقول في أحد قصائده:

ياجـريس مـا لك الله اصـدق من شـيـاهنا ... حـبـيـبـاتنا ياجـريس لو هن ودايع
أخـيـر عندي من تْحِـرّي رفـاقـتي ... كـثـيـرين زَلْق الحكي والبطن جـايع
قـريبين بالعـصـبـه حليّين بالنبـا ... بعـيـدين بالعـازات يوم النفـايع

ويقول أيضا:

أخب باطرافـه خـبـيب الحـصـان ... باطرافـهن ننحى فـروس الذيابه

باطراف الغنم.

عن قـولة الهـربيـد ياجـريس جـاني ... وقت المنايـح مـثل هافي كـلابه
عن قـولة الطلاب لا مـا عطاني ... وعن قـولة المطلوب لا، لا سـعى به
يا انطيت عنز من كـراب اليـمـان ... انهج كـمـا الكسـاب لو كـان مـا به

ويقول عدوان:

ياجـريس بوقـوت الصـفَـر لا تهـاب ... صلّح شـيـاهك لا يقـولون سـعـبـوب
اخـيـر عندي من تحـري حـبـابي ... اللـي ذراهـم بـين الاقـراب مـكروب

ولا أدل على ضبابية الحدود الفاصلة بين البداوة والحضارة في صحراء الجزيرة العربية وصعوبة الفصل بينهما من أن الحضر المستقرين مهما طال بهم المقام في مدنهم وقراهم لا يقطعون صلتهم بالصحراء التي يذهبون إليها كل عام في موسم الربيع لقضاء عدة أيام للفسحة والاستجمام، ويحصلون منها على الكثير من ضروريات حياتهم مثل الأخشاب التي يستخدمونها في بناء بيوتهم والحطب للوقود والعشب لحيواناتهم وبعض النباتات الطبية ونباتات يأكلونها هم مثل الأكمة والعراجين والطراثيث والبسباس والحمّيض والبقّيقر والذعلوق والعنصلا وغيرها. كما أن لكل مدينة أو قرية حمى في الصحراء القريبة منها لا تسمح لأحد من غير أهلها من البدو أو الحضر بالاقتراب منه أو الاستفادة من عشبه وحطبه. ومن المناظر المألوفة في قرى نجد أن ترى الرعاة كل صباح يذودون غنم القرية ذاهبين بها إلى المراعي الصحراوية القريبة ولا يعودون بها إلا عند المساء. وكثيرا ما تنشب

المناوشات بين البدو وأهل القرية حول حمى القرية أو أغنامها التي يحاول البدو أحيانا نهبها حينما تخرج لترعى في الصحراء. وفي فترات السلم يمارس الحضر ما يسمى بالزراعة البعلية وهي أن يعمدوا إلى زراعة القمح والحبوب في الصحراء معتمدين على مياه الأمطار، كما ينشطون في إحياء الموات من الأراضي الصحراوية الخصبة على جنبات الوديان والتي تتوفر فيها المياه. ثم إن البدو الذين يعيشون في المناطق الجبلية التي تتوفر فيها المياه وتنمو فيها أشجار النخيل دون حاجة إلى السقيا، كما في أجا وسلمى وجبال الحجاز، يعيشون جزءا من السنة حياة حضرية والجزء الآخر يعيشونه حياة بدوية. هؤلاء يبدون في فصلي الشتاء والربيع بحثا عن المراعي لإبلهم و يَحَضْرون في فصل الصيف، وهو ما يسمونه وقت المحضار، لجني التمر من نخيلهم التي يكلون العناية بها من تأبير وغيره إلى بني عمهم وقرابتهم من الحاضرة الذين يحصلون مقابل ذلك على قسط من الثمرة. وقد يمارس هؤلاء الزراعة جزءا من الوقت ويراوحون بينها وبين الرعي تبعا لاختلاف المواسم والفصول، وهذا نوع من أنواع الترحال الموسمي.

وكثيرا ما نجد أن القبيلة الواحدة تضم بين فروعها وأفخاذها من يقومون على رعي الإبل وآخرون يقومون على تربية الضأن والماعز وآخرون يعملون في الفلاحة وزراعة الأرض وغرس النخيل (Pelly 1866: 67). وفي كثير من الأحيان يتداخل البدو مع الفلاحين بشكل يصعب معه التفريق بينهم في اللهجة وفي العادات والتقاليد، بل إن الفلاحين أحيانا يمارسون الغزو، مثلهم في ذلك مثل البدو (Burkhardt 1829: 307, 420; Wallin 1979: 162-3, 198). فلو نظرنا إلى قبيلة الدواسر مثلا لوجدنا أن فرع المساعرة وشيخهم ابن قويد لا يملكون نخيلا ويسمون هَل الخيل لأنهم بدو أقحاح بينما نجد الوداعين أهل نخيل ولا يملكون إبل. أما الرجبان فهم أصحاب نخيل لكنهم أيضا أهل إبل ويقال أن شيخهم ابن وثيلة يملك أحد آبار الضيرين شمال فلاة الهضب، كما أفادني مارسيل كوربورسهوك (Kurpershoek 2002: 16, 127). ويدرك شعراء الدواسر هذا الأمر ويكثرون من التطرق له في قصائدهم، كما في قول سعد ابن مدوس الفصام: حضرٍ ليال القيض وان جا المخاضير// بدوٍ نْطرّد بالوسامي زهرها. ويقول جلحان الدوسري:

حنّا هل البل واقتسمنا في المدر ... حضرٍ ليال القيظ بدوٍ في الربيع
يرصَخ بنا غرسٍ تمايل بالثمر ... دونه نورّد شذرة السيف الوريع

ويقول شلعان ابن ظافر الودعاني في هذا المعنى:

يرصخ بنا غرسٍ تمايل عذوقه ... ولا بنينا من ورا الدار سورها
السور حد السيف والخيل والقنا ... وذيداننا ترعى بعالي قورها
حن درعها الضافي وحنا جمالها ... حتى غدت جنه تبارى نهورها
بدوية حضرية شاويه ... فيها المعاوِش من جميع جذورها

ويقول مدوس الدوسري:

في وِرْدِنا نروى المزاريج الحيام وبيعاتنا نرخص بها حدب الجريد
غرسٍ ثمرها للمداغيش الحشام ومناسفٍ يلقى بها الجوعان عيد
إلى نصاها معسرٍ وقت الصرام نملا مزاهب لجْنبي منها وكِيد
وان جا البراد وهاضهم برق الوسام روّوا وطوّوا واعلن الشيخ الشديد
قاد السلف يبرى مثوّرة العسام قبٍّ عليها من يوصّلها البعيد

وأثناء تجوالي في جبلي شمر وفي منطقة النفود شمالا حتى الجوف لاحظت أن سكان كل قرية من القرى الصغيرة المنتشرة في هذ المنطقة الواسعة ينتمون إلى نفس الفرع من قبيلة شمر أو غيرها من القبائل الموجودة هناك. وتوجد في جبل شمر قرى زراعية أهلها من حاضرة تميم، وكل قرية من هذه القرى تربطها علاقة عرفية مع أحد فروع بادية شمر الذين يشاركونهم محصول القرية من التمور مقابل حمايتها وعلى أساس أن شمر هم الملاك الأصليون لهذه القرى التي تقع في باديتهم، مثل قرية الحفير قديما مع ابن ثنيان، أحد شيوخ سنجاره، أو قرية السبعان مع ابن طواله، أحد شيوخ الأسلم. وهناك قرى زراعية يعتمد وجودها على الرقيق الذين يسخرهم البدو للعناية بنخيلهم، مثل ما كان عليه الوضع قديما في وادي الدواسر في الجنوب بالنسبة لقبيلة الدواسر أو في خيبر في الشمال بالنسبة لقبائل ولد علي من عنزه.

وهكذا ينقسم أهل الجزيرة حسب نمط الإنتاج إلى حضر مستقرين يعملون في الفلاحة، وشوايا شبه مستقرين يقومون على رعي الشاء، وبدو رحل يقومون على رعي الإبل. إلا أن هذه الفئات الثلاث، رغم تمايزها الإنتاجي ونمط حياتها اليومي، تشكل مع بعضها البعض طبقة الأصيلين، أي المنحدرين من أصول قبلية والتي تقابلها طبقة غير الأصيلين ممن لا ينتمون لأصول قبلية. النظام القبلي، بحكم أنه مؤسس مجازا على نظام القرابة، يقود إلى حدة أيديولوجيا النسب عند البدو بينما تخف عند الحضر والفلاحين المستقرين لأن طبيعتهم المستقرة وارتباطهم بالأرض يفرض عليهم تنظيما اجتماعيا وسياسيا يختلف في أساسه عن البدو الرحل، ولذلك فإن الحضري يعرف بصفة عامة إلى أي قبيلة ينتمي ولكنه قد لا يستطيع، مثلما يستطيع البدوي، تحديد الفخذ والبطن وهكذا صعودا إلى أعلى بتراتبية تفضي إلى قمة الهرم. ومع ذلك لا يقل الحضري عن البدوي فخرا بانتمائه القبلي الذي يعد جواز المرور إلى طبقة الأصيلين والذي يغذي لديه الشعور بأنه مهما طال مكوثه في الحضر فجذوره وقيمه وعاداته وتقاليده في الأساس بدوية. الحضري ابن عم البدوي بحكم انتماء الإثنين إلى نفس القبيلة، بما يفترضه ذلك من تسلسلهما من نفس الجد. والمتوقع من أبناء القبيلة، بدوهم وحضرهم، أن يتكاتفوا ويتآزروا ويعين بعضهم بعضا. ومما يعزز هذه العلاقة ويمنحها صفة الديمومة ما يقوم بين بدو القبيلة وحضرها من اتصالات مكثفة وزيارات متبادلة وتبادل خدمات ومنافع وتزاوج. بل

إننا نجد عند الحضر انعكاسات، وإن كانت باهتة بعض الشيء، للأيديولوجية القبلية ونظام العصبية القرابية، كأن يزعم أبناء المدينة أو المنطقة أنهم من نسل جد واحد يعتزون إليه، مثل أولاد منصور لمدينة الخبراء وعيال الجريسي لأهل الزلفي واولاد علي لأهل القصيم، وهكذا. ولا يقل حضر القبيلة عن بني عمهم البدو في تمسكهم بالنظام القبلي وثقافة الصحراء وقيم البادية من كرم وشجاعة وربما شاركوهم في غزواتهم وفي أحيان كثيرة لا تكاد تميز لهجة البدوي منهم من لهجة الحضري. ويصطبغ الانتماء القبلي بين البدو والحضر بنظرة أرستقراطية يعززها انتماؤهم إلى طبقة الأصيليين وتتحدد من خلالها هوية الفرد ومكانته الاجتماعية والمهام والأدوار التي يمكن للأصيلي ممارستها وتلك التي لا تليق به وتحط من قدره (Altorki and Cole 1989: 18). من ينحدرون من أصول قبلية لا يليق بهم من الحرف إلا القتال والرعي وفلاحة الأرض والتجارة والأعمال الحرة. أما ممارسة الحرف اليدوية والمهن الوضيعة فإنه مما يخدش في الأصل وربما أدى إلى الخلع من القبيلة. لذلك يتركون الحدادة والخرازة والجزارة والصياغة وما شابهها من الحرف إلى طبقة الصناع الذين لا ينتمون إلى أصول قبلية. ويكفيك للتدليل على ازدرائهم للصناعة أنهم يلقبون من ينكرون أصله بأنه صانع. ويشكل هؤلاء الصناع والحرفيون طبقة اجتماعية شبه منبوذة لا يدخل معهم الأصيليون في علاقات تزاوج وينتمون إلى طبقة الخضيريين. ومن غير المستبعد أن أساس هذه الطبقة الاجتماعية التي لا ينتمي أفرادها إلى قبائل معروفة، والتي يطلق عليها العامة في الجزيرة العربية مسمى خضيريه وأسماء أخرى لا داعي لتعدادها، هم من سكان الجزيرة الموغلين في القدم والذين انتقلوا من الأطوار البدائية إلى طور الزراعة مباشرة دون المرور بحياة البداوة التي تتطلب تنظيما قرابيا وانتماء قبليا. والبعض من هؤلاء سلالات جاليات قديمة أتت من ممالك سومر وآشور وبابل بل حتى من بلاد الفرس والروم وغيرها من الممالك القديمة التي كانت لها مصالح عبر الجزيرة. وجاءت هذه العائلات إما كممثلين تجاريين أو موفدين أو ضمن حملات حربية وبدلا من العودة إلى أوطانهم الأصلية استقر بهم المقام، خصوصا في المدن المأهولة ذات الكثافة السكانية أو التي تقع على مفترق الطرق التجارية. ولا شك أن الأمم القديمة ذات الممالك العريقة تركت آثارا مادية ملحوظة مما يدل على تواجدها في الجزيرة لأغراض تجارية ودينية ودبلوماسية وحربية كما نشاهده في الآثار الشاخصة التي تعود إلى ما قبل الإسلام بأزمنة بعيدة مثل الآبار العادية والمطوية بإحكام شديد أو الجِباب (ج. جُبّ) المنحوتة في الصخر على عمق عشرات الأمتار، خلاف المنشآت العمرانية والتحصينات الدفاعية، التي لم يكن بمقدور أهل الجزيرة الأصليين حفرها أو تشييدها. يقول ويليام روبرتسن سميث "في القرون الموغلة في القدم والتي سبقت البدايات الأولى للشعر

الجاهلي، حينما كانت الصحراء العربية معبرا للقوافل التجارية في المشرق، قامت هنا وهناك في واحات الصحراء العربية التي تتوفر فيها المياه والزراعة حواضر قطنها الساميون واليمنيون والآراميون وشكلت محطات للتبادل التجاري. هؤلاء المهاجرون هم الذين جلبوا معهم إلى الجزيرة العربية فنون الزراعة، بما في ذلك زراعة النخيل" (Smith 1889: 102) .

ويقابل طبقة الصناع عند الحضر طبقة الصلب والسيدان عند البدو والذين ينتقل أفراد منهم من قطين إلى قطين ومن قرية إلى قرية ليقوموا بإصلاح السلاح وأدوات الركوب وكذلك الأدوات الزراعية والأواني المنزلية وغيرها من المعدات والأدوات ومزاولة غير ذلك من الحرف التي يأنف البدو من مزاولتها. ولهؤلاء الصلب خبرات تتفوق على البدو الأصيلين في التكيف مع الحياة في مناطق الصحراء القاحلة، ولذلك يسميهم البدو خلاويه لأنهم غالبا يعيشون في عمق الصحراء "الخلا". وهم في الغالب لا يملكون لا إبلا ولا غنما ويعتمدون على الحمير في تنقلاتهم ويعيشون على الصيد، وحتى ملابسهم يصنعونها من جلود الغزلان. وتتسم ثقافتهم وتنظيمهم الاجتماعي بالبساطة والبدائية ولهم شعائرهم الخاصة وبعض الممارسات والسلوكيات التي تتسم بالبدائية ويستغربها البدو ويزدرونهم من أجلها. ومن غير المستبعد أنهم من بقايا الجماعات البدائية القديمة التي كانت تعيش على الجمع والصيد والالتقاط ولذلك ما زالوا يحتفظون برواسب تلك المرحلة الثقافية البائدة.

التكامل الاقتصادي

يختلف البدو عن الحضر في تعاملاتهم الاقتصادية. يعتمد الحضر غالبا على اقتصاد السوق وعمليات البيع والشراء والتعاملات النقدية. أما الاقتصاد الرعوي فيقوم على عمليات المقايضة والتبادلية وإعادة التوزيع المتمثل في تبادل المنح والعطايا والكرم. وعمليات البيع والشراء ودفع الديون والالتزامات مثل ديات القتلى ومهور الزواج عادة لا تتم عندهم بدفع النقود وإنما بالسلع العينية من رؤوس الإبل والأغنام وأصواع السمن، وما إلى ذلك. وما أكثر الأشعار التي تعبر عن احتقار البدو للتجار الذي يطلبون الدفع نقدا مقابل السلع التي يطلبونها منهم، كما في قول مدوخ ابن العما ابن ظمنه المطيري الذي يقول بأن هؤلاء لا يستحقون أن تقدم لهم القهوة:

كِـفّـه عن اللي عند فـرقـه بشـونه ... يمسي ويصـبح ضـابطٍ لك عَـدَدْها[1]
على ربوعـه طايراتٍ عـيـونه ... ان باع شـاته جـاك حـرّة وَعَـدْها

وفي نفس المعنى يقول ذعار ابن ربيعان:

عـدّه لمن عـوص النجـايب تنصّـاه ... ريفٍ لـهن لى جـا الزمـان اللدوحِ
وباقى الرجـال فـحـول نسـوان ورعـاه ... ضِـبّـاط مـال وحـافظين السـروحِ

(١) كفّه: أي كف الفنجال ولا تناوله، شونه: عصاه الغليظة.

ويقول مشاري ابن ربيعان:

باقي الملا لو مـــا تقـــهـــويه لا باس هـذّارة المجـلـس قـلـيـلٍ حـــــــلاهـا
لا نـافـعٍ ربعـــه ولا حـــاش نـومـــاس ضِـــبّـــاط مـــال ولا يـذرّي ذراهـا

إلا أن هذا الاختلاف بين الاقتصاد الرعوي والاقتصاد الفلاحي لا يحول دون التوافق بينهما ولا يقف عائقا أمام قيام التعاملات الاقتصادية بين البدو والحضر. فحينما يقدم البدوي إلى الحاضرة لا يجد غضاضة ولا صعوبة في التعامل النقدي. كذلك التجار من عقيل ومن القبيسات حينما يذهبون إلى مضارب البدو يكافؤون ضمّانهم وكفلاءهم من البدو بجوائز وهبات عينية مثل الملابس والعباءات والأسلحة والبن وغيرها بدلا من النقود. لكن هذا مجرد اختلاف ظاهري بين الاقتصاد الرعوي والاقتصاد الفلاحي حيث أنهما يمثلان جانبين متكاملين لنظام اقتصادي واحد.

ورغم ما يبدو على السطح من تمايز بين نشاطات الاقتصاد الرعوي ونشاطات الاقتصاد الزراعي في الصحراء العربية فإن كلاهما عرضة لنفس الظروف القاسية والبيئة الشحيحة. سبل المعيشة والنشاطات الاقتصادية للبدو والحضر على حد سواء محكومة على مدار العام بكمية سقوط المطر المتأرجحة ما بين الشحيحة إلى القليلة جدا إلى القليلة، ولكن من النادر أن تصل إلى الكمية الكافية. ويخشى البدو والحضر توالي سنوات الجدب والجفاف ويتلهفون لمشاهدة السحب المحملة بالغيث ويطربون لما يصحب ذلك من صوت الرعد وتلاعج البرق، ويطلبون من الله في كل صلاة أن يغيث البلاد والعباد وأن يرسل عليهم رحمته. وإذا انقطع المطر غارت مياه الآبار ومات الزرع ويبس العشب وأشجار الحمض والرمث. لا يستطيع الفلاح أن يزرع بدون ماء والبدوي يهلك ما بيده من ثروة حيوانية، وتشتد معاناة الناس ويصيبهم الضر. المطر، أو الغيث، هو عنصر الحياة الأساسي وعليه تقوم حياة الحضر والبدو على حد سواء. وشحة المطر في البيئة الصحراوية جعل منه شيئا عزيزا. ولشدة حاجة أهل الصحراء إلى المطر وأهميته في حياتهم وكثرة ترقبهم له تولدت لديهم حاسة قوية ومهارة ملحوظة في معرفة النجوم والأنواء والسحب وشيم البرق لمعرفة موقع المطر وكميته. أضفت ثقافة ابن الصحراء ممثلة بلغته العربية على المطر إيحاءات ودلالات رفعته من مجرد عنصر طبيعي إلى رمز للحياة والنماء والخير والعطاء والكرم والرحمة. وقد تنبه الشعراء لما للمطر من قوة رمزية ومن أهمية في حياة الناس، حضرهم وبدوهم، فجعلوا من وصفه، بمختلف مظاهره الجوية وآثاره البيئية، موضوعا شعريا خصبا قلما تخلو منه قصائدهم.

وما يفصل البدو عن الحضر من تخصص في العمليات الإنتاجية هو الذي يجمع بينهم في عمليات المقايضة وتبادل المصالح والسلع والخدمات. وتتجدد هذه العلاقة سنويا في فصل القيظ "**وقت المقاطين**" حينما تقطن كل قبيلة على مواردها وآبارها غير

بعيد من أحد القرى أو المدن التي عادة ما تربطها مع القبيلة علاقة حلف أو نسب. وهناك الكثير من القرى التي هي أشبه ما تكون بقواعد يقوم وجودها واقتصادها على **المسابله** مع البدو وما تقدمه لهم من خدمات تجارية وحرفية مثل القويعية والشعرا والدوادمي وعفيف ونفي. في أيام المقاطين تصبح القبيلة أقرب ما تكون إلى الحضر ليس فقط في كونها تقطن عادة بالقرب من تجمع حضري لغرض المقايضة والتبادل، وإنما أيضا من حيث التنظيم الاجتماعي لأنها في هذه الفترة من السنة تستقر مثلما يستقر الحضر وتتجمع مثلما يتجمعون، ناهيك عن ارتياد البدو سوق القرية أو المدينة والاحتكاك بالحضر وممارسة البيع والشراء اللذين هما من مظاهر الحياة الحضرية. هذا هو الوقت الذي يجني فيه الفلاحون محاصيلهم الزراعية من تمر وقمح وغير ذلك من المحاصيل التي يحتاج إليها البدو مثلما يحتاج إليها الحضر. يجلب البدو إلى سوق القرية ما يريدون بيعه من ماشية وسمن وإقط ومنتجات صوفية لمقايضتها بما يتوفر لدى الحضر من قمح وتمر وملح وسكر وقهوة وشاي وتبغ وقماش وحبال وغيرها من المنتجات والمصنوعات التي لا تتوفر في الصحراء.

التمايز الإنتاجي بين البدو والحضر ليس إلا توزيع عمل يقصد منه تحقيق الاستفادة القصوى من إيكولوجيا الصحراء، بما يشمله ذلك من معطيات المناخ والبيئة الطبيعية. هذا التمايز الإنتاجي يعزز الاعتماد المتبادل بين البدو والحضر ويؤكد العلاقة التكاملية بينهما وحاجة كل منهما إلى الآخر وارتباطهما كل بالآخر، وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون إشارة مقتضبة في قوله:

> اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش. فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشيط قبل الحاجي والكمالي. فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها واستخراج فضلاتها. وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد إلى البدو لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك. فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمرا ضروريا لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفء وإنما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلغة العيش من غير مزيد عليه للعجز عما وراء ذلك (خلدون ١٩٨٨/١: ١٤٩–٥٠).

ومما يؤكد اعتماد البدو على الحضر قولهم **عيشة البدوي على الفلاح**. ويشكل التمر الذي ينتجه الحضر عنصرا أساسيا في غذاء البدو لا يستطيعون العيش بدونه، ويقول المثل: **لو التمر عند البدو ما باعوه**، مما يؤكد أهميته بالنسبة لهم، خصوصا أنه يسهل نقله وحفظه لمدة طويلة ولا يحتاج إلى معالجة قبل أكله. ولا يقل القمح الذي ينتجه الفلاحون أهمية عن التمر بالنسبة للبدو. وبالمقابل فإن حيوانات الحضر من إبل يستخدمونها في أسفارهم ونقل بضائعهم أو ضأن يستفيدون من ألبانها

يودعونها عند البدو إذا لم يكونوا في حاجة إليها. كما أن أهل الغرس من الفلاحين لا غنى لهم عن الإبل التي يجلبونها من البدو ويستخدمونها في السواني لجذب الماء من الآبار العميقة لري غرسهم وزراعتهم. وأحيانا يستلف الحضر إبل السواني من البدو مقابل حصة من محصولهم من القمح أو التمر. وعادة ما يكون هناك نوع من التعامل المنتظم "العمله" بين أحد البدو وأحد الفلاحين أساسها التهادي وتبادل المنافع والذي بموجبه يوفر الفلاح للبدوي ما يحتاجه من المنتوجات الزراعية من تمر وقمح مقابل ما يوفره له البدوي من المنتوجات الرعوية وإبل للسانية. وإذا حل وقت المقاطين نزل البدوي ونصب بيته بجوار فلاحة عميله الذي يشرع له جابية خارج البستان يجري إليها الماء لترد عليها إبل البدوي وغنمه وتشرب منها، وفي هذه الحالة يسمى الفلاح "الشريب"، أي من يوفر ماء الشرب لأنعام رفيقه البدوي. وبعد حصاد الزروع يسمح الفلاح للبدوي بالاستفادة من حقله المحصود ليرعى ماشيته من إبل وغنم على ما يتبقى في الحقل من قصب القمح بعد الحصاد بينما يستفيد الفلاح من روث الماشية في تسميد حقله. وهكذا نرى أنه بينما تكون التعاملات الاقتصادية بين البدو والتجار أساسها التعامل النقدي فإنها بينهم وبين الفلاحين أساسها التبادل العيني والمقايضة والمهاداة بحيث يحاول كل طرف أن يكون هو الأكرم والأجزل في العطاء.

تجدد علاقة البدو مع الحضر في وقت المقاطين وتكثيفها من خلال الاعتماد المتبادل وحاجة كل منهما إلى الآخر يساهم في تخفيف حدة التوتر التي عادة ما تشوب علاقة الطرفين. ولا ينحصر تعامل البدو مع الحضر خلال هذه الفترة في تبادل السلع بل يتعدى ذلك إلى التبادل الاجتماعي والتثاقف الناتج عن تكثيف الاتصالات وتجديد العلاقات وتبادل الأخبار وتناشد الأشعار. في هذه الفترة تعمر مجالس شيوخ البادية وأمراء الحاضرة بالزوار والضيوف ويحتشد فيها الشعراء والرواة من بدو وحضر للتذاكر والتباحث واسترجاع الماضي وتبادل العلوم و السوالف عن المغازي و الاكوان وعن الذابح والمذبوح وما قيل في ذلك من أشعار. وأوضح دليل على عمق العلاقة وحميمية الألفة التي تنشأ بين البدو والحضر خلال هذه اللقاءات أن بعض شعراء الحاضرة، مثل ابن سبيل وفهيد المجماج، كرسوا معظم إنتاجهم الشعري في وصف حياة البادية ورسم صور ومشاهد من طبيعة الصحراء وفي التعبير عن حنينهم لوقت المقاطين وفي التحسر على رحيل البدو من عندهم مع طلوع نجم سهيل. وهناك العديد من القصص والأشعار المتبادلة بين البدو والفلاحين التي تؤكد على أن ما يقوم بينهم من علاقات اقتصادية وتبادل منافع كثيرا ما يتطور إلى صداقات وثيقة ومشاعر حميمة. من تلك القصص قصة محمد ابن فهيد مع مهلهل ابن هذال، أحد شيوخ عنزة والقصائد المتبادلة بينهما، (فهيد ١٩٧٨: ١٢٥–٧) ومنها هذه الأبيات من قصيدة بعث بها محمد ابن فهيد لابن هذال:

ياراكبٍ من عندنا فوق مطواع	يشبه لدلوٍ مع شفا البير زلّ
شيخ الشيوخ اللي يفكّون الاقطاع	زبن الدخيل الى لفاهم مْذِلّ
سلم عليهم عد ما هب ذعذاع	عْداد ما خيّل سحابٍ وهل
افرح الى قيل اقبلوا والسلف زاع	هذا مناي وخاطري يسفهلّ
وان كان قيل اقفوا ترى القلب ينلاع	اخوان بتلا قربهم ما يمَل

ومثل ذلك القصائد المتبادلة بين بريك الأسعدي، راعي بقعا، وفيصل ابن سويط، شيخ الظفير (إنغام ١٩٩٥: ١٢٧-٣٠؛ عصيمي ١٩٩٥/١: ١١٢-٥) كما تسجلها هذه السالفة التي استقيتها من أمير بقعا خلف الحميدي الخلف العبيد:

صارت رفقةٍ بين بريك وابن سويط. الظفير اجناب، ديارهم يم طوال الظفير، من الوُقُبا الى الرخيميه الى الدليميه من نواحي الزبير. رمى بهم الزمان على بقعا. يوم جا وقت القيض وهم يرْدون على بقعا. نزل ابن سويط على بريك، قال بريك: نرخص لكم ثلاث اظامي بس، على رِبْع ربع، وعقبهن ترحلون عنا، أنتم تقدرون تاصلون الديار وحنا معاويدنا ما ينهجن بعيد، يالله حول النخل، نبيكم تريحون ثلاث اظامي وتمَقْظَون وعقبه نسترفعكم. قالوا: زين. يا مير طيّبةٍ الديره وهم ودهم يقيّظون عليَه، يبون اللقاط والما والديره ريف ومرِيّه. الثمره بنّوا بيوتهم ونزلوا بْلِهم روكابة يقولون له القعيبه. وبثلاثة هلاظامي تسايروا، سير بعضهم على بعض، وعلى كرامات وعلى وناسه. يوم جا ثالث ظما ذولاك تثيقَلوا وهذولا استحوا لا يقولون ارحلوا عقب ما تمالحَوا. بالتالي قال بريك: ياهل بقعا، هذولا الظفير اجناب رمى بهم الله علينا واليوم ربعي ياهلي، الله الله بالعلم الغانم، اما النخل عدّوه ما أطلع هالسنه والزرع عدوكم ما زرعتوا، النخل قولوا كلاه الجراد ومضُّوا هالسنة يوم جونا هالاجواد. قال بريك للظفير: انزلوا على النخيل وعلى المشارع. ونْزَلوا. الجدران ثلّموهن للي يبي يدخل والبيبان فتّحت. وهو كارههم ولا يبيهم، لكن لزْمه. انت يابن سويط. قال: شوفوا يالشعَطان، انت يافلان مسؤول عن الفلان وانت يافلان مسؤول عن الفلان، عن سرقانكم وعن فيدينكم، أيّاي واياكم، العلم الغانم لما نرحل، وهذولا اجواد شرّعوا لنا النخيل وشرّعوا المشارع.وثلاثة الاظامي يصيرن ثلاثة اشهر ويتمّر النخل ويتقاربون وكل شريب يسيّر على شريبه وهْدِموا جدران الحيور من توالي قْصَراهم. ترادّوا الطيب وثلاثة اشهر، تسعين ليله، وهم جيران. ما دريوا الا البرق يوم دلّى يبرق وهبهب البراد وجت روحة البدوي عن الحضري،نوَوا يحولون، قال: والله الظاهر اننا حنا يابريك نوينا نذكركم بخير وبيض الله وجيهكم ولا قصرتوا، ولكن حنا عاد هب البراد ونبي الهور. هم يكتّون الى قضى الزريقي، ذباب يذبح البعير ينقطع الى دخل البراد.قالوا: خلوا حلالنا يرد جميع وورّدوا الزمل قبل الدبش من شان على بال ما يشرب الدبش نشيل على الزمل وتقود البل مع الزمل. توادعوا مثل ما تقول العصر، وهذولاك ربعك يوم صلوا صلاة الصبح والى مير ما بالقاع منهم شي ابد. قال: يالظفير ترو اللي ما يعقل له ناقه لشريبه ترو ما هو منا، كل يعقل معيد بمراح البل ولا تطلع الشمس ولكم بالقاع علْق.ومن صدّر، اديم واحد يتخيّر أطيب نياقه، أخيَر بعارينه، ويعقله بمنحاة شريبه. يوم اصبحوا والى كل بعير مْعَقّلٍ باربعه، لشريبه اللي هو رحل من عنده. ويتوادعون اول موادع عند الزمل يوم ثوروا وثاني موادع كل يسير شريبه ويوادعه وثالث موادع بقاع هوبان شرق من بقعا وآخر موادع براس الجال، وعقبه ذولاك حدروا شرق وذولا جوك رجل حادرين غرب. عاد يتمثل بريك لو اني ما احيط بكل كلامه، على انه قديم وينقص الكلام:

من عقب ما شوفي للقعيبات فرحه	اليوم شوفي للقعيبه ذيب

هالنخيل هذي اسمه القعيبات.

تسعين ليله قربة الشيخ فيصل ... عده ربع يوم عند احب حبيب
ياخليف علمي بالاجاويد شرقوا ... على الهجن واقتادوا طوال سبيب

طوال سبيب الخيل.

عسى الشرق ما يمطر ولا طبه الحيا ... ولا جن وديانه لهن صبيب
عسى الحيا من خشم سلمى الى النقا ... وما طر زرود والمقيد قريب
حتى نشوف ابو عفنان من غب غربه ... يرسل على الما من يدور قليب

ابو عفنان هو ابن سويط.

عسى طارش قال السويطي مقفي ... هزلى ركابه ما تدب دبيب
لى صار لا زول ولا شاف ذيره ... ركابه من بين الظالمين نهيب
وعسى طارش قال السويطي مقبل ... عساوه عن اليوم الشرير يغيب
اهل قربة ما مل منهم قريبهم ... ولا جارهم وقت الظلام مريب
ياعل عين ما بكتهم للرمد ... عساه من كثر البكا تشيب
حنا كرهناهم ليالي ورودهم ... ثاريهم السكر بجوف حليب

يوم ربعوا وتغدي لك الدنيا ريف من ديرة الظفير الى الجبل وتربّع بقعا ويكثر الخير عندهم وتردّ حالهم. ويجونك اهل بقعا وكل راعي حير يحمّل الناقة اللي خلّى له شريبه الظفيري حِمل سحّه، من تمر الحلوه ويدفعونهن يم الظفير وقالوا لمناديبهم: خلوا البل عند اهله ما عاد لنا به حاجه، قضى لازمنا منهن، حنا هالحين ديرتنا ربعت والخير واجد لله الحمد. وإلى والله السويط نازلين بهكالحنيه يوم راعوا والى والله هذي روكة الاباعر مقبلة عليهم. والى والله هذولا اهل بقعا وهذي اباعرهم. وكل ناقة عند راعيَه. ويفرحون بهم ويحيون بهم ويضيفونهم هكالليله. يوم نامت كل عين والله ويجونك اهل بقعا وهم يسرقون روحهم وينحاشون، خافوا يلزّمون عليهم يرجّعون البل معهم. يوم اصبحوا الظفير يا مير ما حْذَى مباري عْصيّهم. يوم كيّلوا الظفير بالصيف من الزبير وهم لك كل يحمّل بعير من اباعره زهاب وتمَّن وقهوه وعباة وفَرْوِه وهم يدفعونه لاهل بقعا وقالوا للمناديب: إلى وصلتوهم قولوا ترى البل عليهن جيرة العبد راشد ما عاد ينكّسن علينا ولا يطلعن من مناحي هكالحيور اللي فجروا لنا ماهن وهدموا جدرانهن لنا. يوم راعوا أهل بقعا، هم بالصيف، يا مير الحملة يوم فاضت عليهم من عند قطيّان تناحى حمولَه. يوم اقبلت عليهم يا مير هذي اباعرهم اللي كزّوا عليَه التمر جايتهم من الزبير، وكل ناقة تنوخ عند راعيه بحملَه طعام وكسوة لْهَلَه. قال عاد بريك ابن عنيفص:

حلى الدهر منطوق العلوم الوكايد ... وطرق هبوب الريح والشوف قايد
وشربك قراح الما مع الناس عيشه ... لى صرت مَكْفِي الهموم الشدايد
وقرب صديق من صديق يسرك ... والبغض هذا من مناه البعايد
وذكر الحيا والخيرين يسرني ... ولا نيب فوّادٍ يدور الفوايد
وخلاف ذا ياراكب فوق عيره ... دفوفها من كثر الالحاح بايد
ياركب عوجوا ساعةٍ لي رفوقهن ... خوذوا لي اللي ما عليهن كايد
كلام خفيفٍ طيب الله فالكم ... بقطع الفيافي موحشات البجايد
سرها ثلاث مع ثلاث لعله ... تلفي صويطات مِحير القصايد
قولوا عليهم من بريك تحيه ... عدد ما رمى القناص مخطي وصايد
وخصوا بتسليمي شهيل ومانع ... وعقلٍ وفوازٍ وعليٍ وزايد

عـــســـاك يادار تلم آل مـــرشـــد تحن عليك المرزمـــات الرعـــايد
ســقى دارهم من مــزنةٍ مـدلهـمـه تاتي من المنشـــا بْنَوّ القـــلايد
قلايد الوسم.
على وجـه شـيخ من شـيـوخ آل مـرشـد ابو فـيـصل ريف المرامـيل صـايد
ابـو ظـعـنـةٍ تـرفـي ثـمـــــانـين مـنـزل على الوجـه لى راد الخـصـيم المعـاند
عليـهن سـمـحين الوجـيـه آل مـرشـد مـخـزّمـةٍ شـروى الفـحـول الهـدايد
تسـقي مـثلمـة السـيـوف آل مـرشـد لهم عند مـيـلات الوهيـد العـوايد
الوهيد: الشيل، القش.
فـانا قـاسمٍ ثلث الندا عند فـيـصل وعلى داير الدنيـا مـبـقّى بدايد
اللي بنى للضـيف بيت مـشـيـد وهل الصـر مـا يبنون بيت المجـايد
اللي يصرون الدراهم.
أهل ناقـة مـابيـة عن حـريبـه من سـيف عـمـهـوج ومن رمح ذايد
تـشـل الدمـــا شل بـالايدي لكـنـه مـجـاج الدبا والا خـضـاب الخـرايد
بهم شـارة تهـدى الدليل الى غـدى لميع الضـوا لى لذ للعين نايد
لكن عظام الضـيف من خلف بيـتـهم مـغـارة ليث بـه جـديد وبايد
ولكن فـضـيض المال من غب كـونهم بلاد غـدى تالي نخلهـا شـرايد
ولكن هجـيج الخـيل عن وجـه خـيلهم من الريم عـانـاةٍ حـداهن ذايد
وتلقى حْـذُوّة الخـيل باثر خـيلهم بِسْـرٍ من الجـدّاد غـادٍ بدايد
يطلعن غـيب الثـرى يقلبنّه بالقـاع تلقى من حـذاهن بدايد
جت ابن سويط القصيده، عاد ابن سويط يرد على بريك:
خـلاف ذا ياراكب فـوق حـره زْوَى كـورها من كـثـر الالحـاح بايد
جـدعـيـه تقطع صـحـاصـيح بيـدا تطوي بعـيـد الدار هو والنفـايد
سـرها ثلاث مع ثمـان مع اربع وتطالع بقـعـا مع زبار النفـايد
لى جـيت اخـو عـفـرا بريك فـقل له حنا على مـا قـال فـينا وزايد
حنا زمـام الحـرب قـبلٍ وتونا ونصـبـر ولو كـثـرت علينا الفـقـايد
مـيـر خص اهل بقـعـا بالسـلام وعـمـهم سـلامٍ اَكـثـر من زبار النفـايد
أهل قـربةٍ مـا مل منهم قـريبـهم وقـصـيـرهم مـا شـاف منهم ضـهـايد
عـسى تجـيـهم مـزنةٍ وابل الحـيـا وتسـقي وطنهم ناعـمـات الجـرايد
ويقول بريك ابن عنيفص:
لقـيت في قـرب الاجـواد راحـه ياعل عين مـا بكتـهم تداوى
بدوٍ بعـيـدٍ منزله عن مـراحـه مـا رايفـوا لمدرّجين التـلاوى
كم عِـقْلةٍ بالقـيض شـربوا قـراحـه ونجـور مـاوٍ فـوق جـاله تعـاوى
وكم خَـيّـرٍ مـا سـايلوا عن مطاحـه عليـه حـثّـات البـراثن تَعـاوى
وشـدّوا على برقٍ تقـازى ضـحـاحـه والسـمن من طول المسـيـره تطاوى
يوم جـوا مـفلين طرشـهم بالبـراحـه بس الحـبـاري والنعـام الدحـاوى
تلقى منازلهم براس الشـراحـه عليـهم ركـبـان البـداوا تهـاوى

العقيلات

لعب تجار عقيل، ويسمون العقيلات أيضا، دورا أساسيا في دمج إنتاج الحضر الزراعي وإنتاج البدو الرعوي في نظام اقتصادي شامل متكامل، مستفيدين في ذلك من الإبل كوسيلة للنقل ومن خبرتهم بحياة الصحراء ومعرفتهم بشؤون القبائل وأعرافها وطرق التعامل مع البدو. لن ندخل في متاهات البحث عن أصل تسمية عقيل، ومتى أطلق هذا الإسم، وهل هو مشتق من العقال الذي يعقل به البعير (لأن اعتماد عقيل الأساسي كان على الإبل كوسيلة للنقل)، أم من العقال الذي يضعه الرجل على رأسه (والذي يعد مكونا أساسيا من مكونات الزي لأبناء وسط الجزيرة العربية)، أم من أنهم ورثوا هذه المهنة والإسم من العقيليين الذين كانت لهم السيادة قديما في شرق الجزيرة العربية. ويمكن الرجوع في هذا الأمر إلى قائمة صغيرة – لكنها آخذة في التنامي– من المراجع التي بدأت تتجمع عن العقيلات، ومن أهمها ما كتبه رائد هذا المجال إبراهيم المسلم وما كتبه أبو عبدالرحمن بن عقيل وعبدالرحمن السويداء، وكذلك عبدالغني إبراهيم الذي بذل جهدا يشكر عليه لا من حيث المصادر التي رصدها ونخلها ولا من حيث الأفكار التي طرحها. ولا يهمنا هنا البحث عن أصل الإسم واشتقاقه اللغوي بقدر ما يهمنا البحث في الدور الذي اضطلعت به هذه الطبقة من النخبة والتجار، خصوصا فيما يتعلق بدور العقيلات كحلقة وصل تربط بين الحاضرة والبادية، وكذلك فيما يتعلق بكونهم يمثلون شكلا من أشكال الاستمرارية الثقافية والاجتماعية في صحراء الجزيرة العربية على مر العصور. هذا عدا عن دور الإبل وارتباطها بنشاط العقيلات.

تمثل قوافل عقيل مجالا من أهم مجالات النشاط الاقتصادي الذي نتج عن استئناس الإبل وهي تنظيم أفرزته الجزيرة العربية في تفاعلات بدوها وحضرها مع بعضهم البعض وفي تفاعلاتهم مع الحضارات النهرية المجاورة منذ القدم، كما سبق وأن ألمحنا. إنها تقوم على تصدير منتجات الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين والشام ومصر ثم تعود حاملة ما تنتجه هذه البلاد وما تستقبله موانؤها من سلع وبضائع أوربية وهندية. إنها استمرار لنشاطات تعود بداياتها إلى الحقبة التي تلت استئناس البعير، حينما بدأ أهل الجزيرة العربية يستفيدون من الإبل في أغراض الركوب والنقل وحمل البضائع، خصوصا على يد الأنباط والتدمريين ومن بعدهم قريش. قوافل عقيل هي العير التي كانت تسيرها قريش صيفا وشتاء إلى الشام واليمن واللطائم التي كان النعمان يسيرها كل عام من الحيرة لتباع له في سوق عكاظ. ولعله من المفيد لو تمت قراءة الموروث الأدبي الجاهلي ومصادر التاريخ والأخبار من ذلك العصر وجمع كل ما يمكن الحصول عليه من مادة إثنوغرافية يمكن أن تساعدنا على تصور الكيفية التي كانت تنظّم وتدار وتسيّر فيها العير واللطائم ومقارنتها بقوافل العقيلات، ولا أشك أن المفاجئة ستكون مذهلة، أعني فيما يتعلق

بمدى الصلة والشبه بين تلك الحقبة المبكرة والحقبة المتأخرة التي نتحدث عنها الآن. ولقد وفر لنا الأستاذ إبراهيم المسلم بعض المعلومات الأساسية والمفيدة عن طريقة تسيير قوافل العقيلات ووصف الطرق التي يعبرونها والموارد التي يمرون بها والنشاطات التي يمارسونها.

عقيل مؤسسة تجارية تمثل حلقة من أهم حلقات الوصل التي تربط البادية بالحاضرة وتؤكد ما بينهما من تكامل اقتصادي وتداخل ثقافي وسياسي. وهي ظاهرة حضرية وبدوية في آن واحد ينتمي إليها التجار من البدو والحضر، وإن كان الحضر يشكلون الغالبية، لا سيما أن البدوي إذا نمت تجارته إلى حد معين سيضطر إلى الاستقرار الذي يقود إلى التحضر. يحتك العقيلي بالبدوي وتتشابك مصالحهما على عدة مستويات. تصدر الصحراء العربية كل سنة بواسطة العقيلات إلى بلدان الهلال الخصيب ومصر مئات الرؤوس من الخيل وآلاف الرؤوس من الإبل التي تنتجها مراعي الصحراء ويشتريها العقيلات من البدو. إضافة إلى ما يشتريه العقيلات من البدو من منتجات لبنية مثل السمن والأقط. ويشتري العقيلي من البدوي الإبل التي يستخدمها في نقل البضائع والحجاج والمسافرين، والكثير من العاملين في قوافل العقيلات من أبناء القبائل، خصوصا الأدلاء والحراس والرعاة والملاحيق وما شابه ذلك من مهن القيام على الإبل والعناية بها. وكانت طبقة التجار من العقيلات والرحيلية وأمراء المدن والقرى يجيدون التعامل مع الأعراف القبلية مما مكنهم من اختراق الصحراء بتجارتهم عبر ديار القبائل المتحاربة دون أن يصيبهم أذى أو يمسهم أحد بسوء. وهكذا استطاعوا أن يؤمنوا طرق التجارة التي يمرون بها لأنهم يعرفون جميع الاحتياطات والتدابير التي عليهم أن يتخذوها مع شيوخ القبائل. إضافة إلى ما يدفعه العقيلي لشيخ القبيلة من مبلغ مالي مقابل كل بعير يشتريه من مضارب القبيلة، فإنه يدفع أيضا خوّة للخوي والرفيق من أبناء القبيلة الذين يتعهدون بحماية روحه وممتلكاته من أبناء قبيلتهم والتكفل برد ما ينهبونه من ماله. هذه الخوة التي يدفعها تجار عقيل لشيوخ البادية الذين يمرون بديارهم ويستقون من آبارهم هي الإيلاف الذي كانت تدفعه قريش لقبائل الجاهلية (Kister 1980: 116-160). ومثلما كانت قريش تسير قوافلها في فصلي الشتاء والصيف فإن قوافل العقيلات تختلف في الحجم وخط السير والفصل الذي تتحرك فيه تبعا لاختلاف أغراضها ونشاطاتها التجارية. وموعد انطلاق القوافل التي تنقل البضائع التي تجلبها السفن الشراعية من أوربا إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط أو من شبه القارة الهندية إلى موانئ الخليج محكوم بمواعيد هبوب الرياح الموسمية التي تسير هذه السفن. القوافل التي تجلب القمح والحبوب من الشام تبدأ رحلتها إلى نجد بعد موسم الحصاد والتي تجلب التمور من العراق بعد صرام النخيل. أما القوافل التي تجلب الخيل والإبل إلى

العراق والشام ومصر فإنها عادة تغادر نجد قبيل فصل الصيف الحار مع نهاية فصل الربيع بعد أن تشبع هذه الأنعام من المراعي وتختزن الطاقة التي تعينها على الرحلة وحتى تصل إلى الأسواق بدينة وفي حالة جيدة.

ويقول المسلم إن قوافل بيع الخيل والإبل تضم الواحدة منها عددا من الخيول يتراوح ما بين ١٠٠ إلى ٢٠٠ رأسا وعددا من رعايا الإبل تتراوح ما بين ٢٠٠ إلى٣٠٠ رعية، والرعية الواحدة تعدادها ٨١ إلى ٩١ رأسا من الإبل (الرقم الفردي في الرعية يشير إلى القعدة التي يركبها الراعي وهي عادة بلون يختلف عن لون الرعية وتنعت الرعية بلون قعدتها). وهكذا فإن القافلة الواحدة تجلب إلى أسواق الشام والعراق ومصر مما تصدره الصحراء العربية من ثروة حيوانية ما بين ١٦,٠٠٠ إلى ١٧,٠٠٠ رأسا من الإبل، وهو رقم كبير، عدا الخيل. وعلينا أن نتذكر بأن هناك عددا من قوافل العقيلات تتجه من مناطق مختلفة من الجزيرة إلى بلاد العراق والشام ومصر كل عام. ويتبين لنا من هذه الإحصائيات أهمية الإنتاج البدوي الرعوي بالنسبة لاقتصاد الجزيرة العربية حيث أنه هو النشاط الوحيد القادر على توفير الفائض للتصدير بينما نجد أن الإنتاج الزراعي لا يكفي حاجة السكان مما يضطرهم إلى الاستيراد من الخارج.

إضافة إلى تصدير ما تنتجه بلاد العرب من الإبل والخيول إلى أسواق الهلال الخصيب ومصر، يتعهد العقيلات بنقل البضائع والمسافرين عبر الصحراء الموحشة. ويتعهد كبار التجار من العقيلات بنقل الحجاج الذين تنطلق قوافلهم من طهران والكويت والبصرة وبغداد والشام وقد تصل القافلة إلى ٥٠,٠٠٠ ألف شخص. ومن مسؤولية متعهد النقل أن يؤمن لجميع هؤلاء الحجاج الإبل وكافة مستلزمات الرحلة من الخيام والأثاث والفرش والأغطية والكوايج والهوادج والطعام والطباخين وأدوات الأكل والطهي والأواني والقرب والصملان والحياض الجلدية لسقيا الإبل وعدة السقيا من الآبار من المحال إلى المقامات إلى الحبال والدلاء. وكذلك توفير الحرس والرعاة وسائقي الإبل والأدلاء الذين يعرفون طرق الصحراء ودروبها وموارد المياه، والرِفَق من القبائل التي يمرون بديارها.

وقد تضم القافلة الواحدة آلاف الأفراد الذين يتقسمون إلى خبر، أي فرق، يتراوح حجم الخبرة من ٦ إلى ١٠ أشخاص. وكل خبرة لها شراعها، أي خيمتها. والقافلة لها أمير يتولى قيادتها وينظم مسيرتها ويرأس أفرادها، ويصحبه حاشية من التجار والمرافقين يستشيرهم ويساعدونه في مختلف المهام الإدارية والإشرافية. يحدد المسلم حجم القافلة التجارية بحوالي ٣٠٠ إلى ٤٠٠ شراع وحرس يتراوح عددهم من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ وخويا ومساعدين لنصب الخيام وعمليات التحميل والتنزيل يصل عددهم ما بين٤٠٠ إلى٦٠٠ رجل. ولكل رعية من الإبل راعي ومساعد

له يسمى ملحاق مهمته تجميع ما يشذ من الإبل، إضافة إلى الرفق والأدلاء والطهاة والقهوجية. كما تضم القافلة بعض الصناع والنجارين والخرازين الذين يعملون على إصلاح ما يحتاج إلى إصلاح من الأشدة والقرب وأدوات التحميل وغير ذلك من الأشياء. وقد يصل عدد الجميع إلى ٣,٠٠٠ شخص. إنها مدينة متحركة. يقول السويداء إن القوافل

> لها تنظيم خاص يتكون من أمير القافلة الذي يرجع إليه رؤساء "الخبر" الفرق الذين معه وكل "خبرة" أو فرقة موكول إليها مهام معينة كدلالة الطريق وملاحظة الإبل والخيل ورعيها إن كانت القافلة من قوافل بيع المواشي، أو فرق تحميل الأحمال أو فرقة "الثاية" وهي الموكول إليها الخيام والأمتعة وإعداد الطعام والقهوة وفرقة "القلوط" وهم طلائع القافلة أو عينها التي تسبقها لتطمئن إلى أمن الطريق وفرقة "الملاحيق" وهي التي تكون في مؤخرة القافلة مع الرعيان لحث المتأخر من القافلة و"خبر" أو فرق الحراسة المسلحة التي تنقسم بدورها إلى أربعة أقسام قسم عن يمين القافلة والآخر عن يسارها وثالث أمامها ورابع خلفها، و"خبرة" أو فرقة المعرفين من أفراد القبائل التي ستمر القافلة بأراضيها أثناء عبورها (سويداء ١٩٩٦: ٣٦).

كذلك كتب السويداء عن تنظيم القوافل قائلا:

> القوافل التي تكون تجارتها الخيول أصعب من التي معها الإبل نظرا لأن الإبل تتحمل الظمأ والسير لمسافات طويلة دون الحاجة إلى الماء من الخيل، كذلك تختلف القافلة التي تحمل الحجاج الذين تتراوح قوافلهم ما بين ٢,٠٠٠–٣,٠٠٠ فرد وقد تزيد عن ذلك فمثل هذه القافلة الكبيرة تحتاج إلى حوالي نصف هذا العدد من رجال الخدمات الذين يعملون في التحميل والتنزيل والسقيا على الموارد، فإذا تصورنا أن مع هذه القافلة حوالي ثلاثة آلاف بعير فما هو المورد الذي يكفيهم من الماء إلا أن يكون ذلك على مراحل وتستمر عملية السقي بالليل والنهار على مدار الساعة بحيث تروى إبل القافلة ويأخذ الرجال ما يحتاجون من الماء في قربهم ورواياهم كما أن هذه القوافل الكبيرة تحتاج إلى العديد من الحراس، أما القوافل التجارية فإن الجند المرافقين للقافلة يتناسب طرديا مع مقدار الأمتعة التي ينقلونها وتبعا لقيمتها حيث تتحمل هذه القيمة تكاليف الحراس ومصاريفهم وغالبا ما يكون لحمل كل بعير من القماش رجل مسلح واحد يحرسه أما إذا كان المتاع المحمول من السكر أو البن وما إلى ذلك من السلع الأدنى سعرا فيقوم كل عقيلي بحراسة بعيرين ولا يقل عدد الحراس المصاحبين لقوافل التجارة عن مئة حارس بالإضافة إلى شيوخهم يضاف إلى ذلك عدد كبير من الرجال يعرفون بالجمالة مهمتهم العناية بالإبل وتتراوح أعداد الإبل في قوافل السلع ما بين ١٢٠٠–٥٠٠٠ بعير وغالبا ما يكون ثلث هذا العدد محملا بالسلع وثلثه الآخر لركوب التجار والمسافرين والثلث الأخير للأحمال مما يخص رجال القافلة من خيم وأواني وأطعمة وغيرها (سويداء ١٩٩٦: ١٧٩–٨٠).

تسيير هذه القوافل الضخمة وتوفير مستلزماتها وتأمين حمايتها من القبائل التي تمر بها مهمة جسيمة لا يستطيع القيام بها إلا شخصية فذة ذو قوة مادية وقوة معنوية. وليس مستغربا أن تكون إمرة هذه القوافل بيد أناس يمثلون زعامات سياسية في بلدانهم. ومثلما تأسست في الماضي البعيد إمارات وممالك على هذا النشاط التجاري واللوجيستيكي، مثل مملكة الأنباط ومملكة تدمر، فقد تأسست إمارات في العصور المتأخرة معتمدة في استمرارها وقوتها على نشاط العقيلات مثل

إمارة الرشيد في حائل وإمارة المهنا في بريدة. ومعظم الصراعات التي تنشأ على منصب الإمارة في البلد الواحد أو بين الإمارات المختلفة غالبا ما يكون السبب فيها حدة التنافس على عائدات النقل والتجارة عبر طرق الصحراء، وهي عائدات لا يستهان بها كما جاء في الفقرة التالية من حديث ألاويس موزيل عن محمد ابن رشيد:

> يحظى محمد ابن رشيد بشعبية بين البدو والحضر على حد سواء نظرا لما هو معهود عنه من مهارة في قيادة القوافل. يرسل الحضر من بلاد ابن رشيد سنويا ما لا يقل عن أربع قوافل تجارية ضخمة إلى العراق. يستأجر هؤلاء إبلا من البدو لنقل بضائعهم ويحملونها بما يقدرون على تحصيله من منتجاتهم مثل صوف الأغنام ووبر الإبل والسمن والودك ومعدات ركوب الإبل، وغيرها. وغالبا ما يصطحبهم تجار الإبل والأغنام الذين يسوقون ما يشترونه من رعايا إلى العراق ومنها بمحاذاة نهر الفرات إلى سوريا. والكثير من البدو أيضا يصطحبون هذه القوافل (الحدرات) لبيع إبلهم وأغنامهم في أسواق العراق وليتزودوا من هناك بالمؤن الغذائية والأقمشة. يحضرون من العراق التمر والتمّن (الرز) والقمح والشعير والملابس والحديد والنحاس وكذلك، إن أمكن، السلاح والذخيرة. وكل قافلة تسير تحت إمرة قائد يعينه الأمير الذي يمده بعدد من الجنود من أجل الحماية. ودائما ما يصطحب القائد معه شيوخ القبائل التي يعبر ديارها، أو من ينوب عنهم، والذين يتعهدون بحماية القافلة من اعتداء قبائلهم. ومع ذلك قد تتعرض القافلة للنهب من القبائل البعيدة، ويحدث ذلك عادة في رحلة العودة حينما تكون القافلة محملة بالبضائع والأرزاق. وقبل دخولهم العراق يعد القائد الإبل ويجبي عليها ضريبة للأمير مقدارها ربع مجيدية (٣٢ سنتا) على كل بعير من البدو ونصف مجيدية على كل بعير من التجار، إضافة إلى مبلغ غير محدد له هو. وحيث أن القافلة غالبا ما تضم أكثر من عشرة آلاف بعير وتجبى منها الضريبة أيضا في رحلة العودة فإن قائدها يحصل على مبلغ لا بأس به. ولو كان ناجحا في قيادة القوافل وتمكن من صد الاعتداءات عليها فإنه يكسب احترام الناس، خصوصا بين الحضر الذين يرون فيه شخصا يشجع تجارتهم ويعزز ازدهارها (Musil 1928b: 241).

ثم يستطرد موزيل قائلا:

> وقد استفاد محمد ابن رشيد فائدة قصوى من موقعه، حيث استطاع أن يستميل قادة القوافل، إما عن طريق الهدايا أو التهديد، ليسيّروا قوافلهم عبر الطرق التي تمر بعاصمته حائل. فلم تعد قوافل الحجيج تمر عبر الرياض والإحساء وإنما عبر أبو غار والطقيّق وحائل. حتى قوافل التجار من القصيم صارت تأخذ الطريق الذي يمر عبر حائل. وكان على كل واحد من الحجاج، والذين يصل عددهم أحيانا إلى عشرة آلاف، أن يدفع ليحصل على الماء والبعير الذي يركبه ثلاثين مجيدية في رحلة الذهاب وخمس عشرة مجيدية في رحلة العودة. كما أن جزءا من البضائع التي يستوردها الحجاج أو ينقلونها تتم مصادرته على شكل ضريبة يجبيها الأمير. وهكذا استطاع محمد أن يساهم ليس فقط في ثراء العائلة الحاكمة وإنما أيضا التجار من الحضر ومن البدو الذين اعتادوا على كراء إبلهم لقوافل الحجاج (Musil 1928b: 243).

ويقول موزيل إن العلاقات التي كونها محمد ابن رشيد أثناء إمارته لقوافل التجار والحجاج هي التي ساعدته في صراعه على السلطة مع أبناء أخيه. وقبل محمد كان أخوه طلال يسير قوافل الحج من بلاد العجم تحت قيادة أخيه متعب

وعدد حراسها لا يقل عن ٦٠٠ شخص (Palgrave 1868: 91). ما قدمه لنا السويداء والمسلم والرحالة الغربيون من معلومات عن العقيلات سجلوها من واقع ما تسنى لهم معايشته أو نقلوه من أفواه الرواة الذين عايشوا تلك الحقبة. لو أتى لنا الأثاريون بهذه المعلومات منقوشة على ألواح من الطين لحضارة قديمة لقلنا إننا أمام حضارة عظيمة. تسيير حملات على هذا الحجم الضخم والتنظيم المذهل ليس أمرا بسيطا، وهذا يتطلب منا إعادة النظر في تقييمنا لحضارات الجزيرة العربية قديما وحديثا وتنظيماتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية.